﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦١﴾ [النّور: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ أحكامِ حُرماتِ البيوت، إلى بيان أحكامِ المباح فيها

لَمّا ذكَرَت الآياتُ السّابقة مِن حُرُماتِ البُيوتِ المُستلزِمةِ لصيانةِ الأبضاعِ على وجهٍ يلزَمُ منه إحرازُ الأموالِ؛ أتْبَعَهُ ما يُباحُ مِن ذلك للأكلِ - الذي هو مِن أجَلِّ مقاصِدِ الأموالِ - اجتِماعًا وانفِرادًا، فقال في جوابِ مَن كأنَّه سألَ: هل هذا التَّحجيرُ في البُيوتِ سارٍ في الأقارِبِ وغَيرِهم في جميعِ الأحوالِ؟[1].

كما أنَّه بعد أنْ تحدَّثتِ الآياتُ الثلاث السابقة عن أدبِ الاستئذان من المماليك وصغارِ الأطفال والبالغين على ذويهم، وجواز تركِ العجائز لبْسَ الثياب الخارجيَّة كالأردية تخفيفًا عنهنَّ؛ جاءتْ هذه الآية الكريمة لتحدِّثنا عن أنواعٍ أخرى من الآداب الإسلاميَّة الرفيعة، أوَّلها: ما يرتبطُ بأصحابِ الأعذار، وثانيها: ما يرتبطُ بالأصحّاء، وثالثها: تحيَّةُ الإسلام عند الدخول[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 315.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1468.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾: (عمي) أصلٌ يدلُّ على سَتْرٍ وتَغْطيَةٍ، من ذلك العَمَى: ذَهابُ البَصَرِ من العَيْنَيْنِ كِلْتَيهما، يُقال: رَجُلٌ أَعْمَى وامرَأَةٌ عَمياءُ، ولا يَقَعُ على عَيْنٍ واحدةٍ، والجَمعُ عُميٌ وعُميانٌ[1]، وعَميَ عليه الأمر؛ إذا التبسَ، واشتبهَ، وخفي، والعَمَى أَيْضًا: ذهابُ بَصَرِ القَلْبِ، تقولُ: رجُلٌ عَمي القَلْبِ، أَي: جاهِلٌ[2]، والمراد هنا في الآية: فاقدُ البصرِ، أي: الذي ذهبَ بصرُ عينيه[3].

2) ﴿ٱلْأَعْرَجِ﴾: (عرج) أصلٌ يَدُلُّ على مَيْلٍ ومَيَلٍ، والعَرَجُ مَصْدَرُ الأَعْرَجِ، ويُقالُ: عَرِجَ يَعْرَجُ عَرَجًا؛ إذا صارَ أَعْرَجَ، وقالوا: عَرِجَ يَعْرَجُ خِلْقَةً، وعَرَجَ يَعْرُجُ؛ إذا مَشَى مِشْيَةَ العرجانِ، ويُقالُ لِلطَّريقِ؛ إذا مالَ: انْعَرَجَ، وانْعَرَجَ الوادي، ومُنْعَرَجُهُ: حَيْثُ يَميلُ يَمنَةً ويَسْرَةً، وانْعَرَجَ القَوْمُ عَنِ الطَّريقِ؛ إذا مالوا عَنْهُ[4]، والأعرجُ: من أُصيبَتْ إحدى رجلَيهِ، فاختلَّ مشيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾[5].

3) ﴿حَرَجٌ﴾: (حرج) أصلٌ يدلُّ على تجمُّعِ الشَّيْءِ وضيقِهِ، فمِنْهُ الحَرَجُ جَمعُ حَرَجَةٍ، وهيَ مُجْتَمَعُ شَجَرٍ، والحَرَجُ: الإثْمُ، والحَرَجُ: الضّيقُ[6]، والحَرَجُ: المَوْضِعُ الكثيرُ الشَّجَرِ الَّذي لا تَصِلُ إليه الرّاعيةُ، فالحَرَجُ في الأَصل الضّيقُ، ويَقَعُ على الإثم والحَرام، والحارِجُ: الآثِمُ، وقيلَ: الحَرَجُ أَضْيَقُ الضّيقِ[7]، وتحرَّجَ: تجنَّبَ الإثمَ، وابتعدَ عن الشُّبهات، وتحرَّجَ منه: تجنَّبه مع احتمالِ مشقَّة وضيق، ومعنى ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾، أي: مانع أو إثم أو حُرمة[8].

4) ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾: (فتح) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الإغْلاقِ[9]، ومفاتح: جمع مِفتح ومفتاح، والمفتاحُ: مِفْتاحُ البابِ، وهو آلَةُ الفَتْحِ، أي: كُلُّ ما فُتِحَ بِهِ الشَّيْءُ، أو ما فُتِحَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).
(2) الزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عمي).
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 19/ 434.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عرج).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرج).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حرج).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حرج).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتح).

بهِ كلُّ مُسْتَغْلَقٍ، ويُجمعُ على مفاتيحَ ومَفاتِحَ، وهو جمع مَفتحٍ أيضًا، والمَفتح بفتح الميم هي: الخزانة والكنز[1]، ومعنى ﴿مَّفَاتِحَهُۥ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللُّغوي، أي: مفاتيحُ الأبوابِ أو الخزائن[2].

5) ﴿أَشْتَاتًا﴾: (شَتَّ) أصلٌ يَدُلُّ على تَفَرُّقٍ وتَزَيُّلٍ، مِنْ ذَلِكَ تَشْتيتُ الشَّيْءِ المُتَفَرِّقِ، تَقولُ: شَتَّ شَعْبُهُم شَتاتًا وشَتًّا، أَيْ: تَفَرَّقَ جَمعُهُم[3]، وجاؤوا أَشْتاتًا، أَيْ: مُتَفَرِّقينَ، ويُقالُ: أَخافُ عليكُم الشَّتاتَ، أَي: الفُرْقَةَ[4]، ومعنى ﴿أَشْتَاتًا﴾: متفرِّقين كُلٌّ وحده، أي: فرادى[5].

6) ﴿تَحِيَّةً﴾: (حيَّ) خلافُ الموتِ، ومنه الحياةُ[6]، وأصلُ التَّحيَّةِ من الحياة، فالتَّحيَّةُ أنْ يُقال: حيّاك اللّه، أي: جعلَ لك حياة، وذلك إخبارٌ، ثم يُجعل دعاء تحيَّة؛ لكون جميعهِ غيرَ خارجٍ عن حصولِ الحياة، أو سببَ حياة إمّا في الدُّنيا، وإمّا في الآخرة[7]، والتَّحيَّة: السَّلامُ، والبقاءُ، والمُلْك، يُقال: حَيّاك اللّهُ، أي: سلَّم عليك، أو أَبْقاكَ، أَو مَلَّكَكَ، أَو سَلَّمكَ، وقيل: هوَ بمنْزِلَةِ أَحْياك اللّه، أَي: أَبْقاك[8]، وهو المرادُ في الآية.

7) ﴿مُبَٰرَكَةً﴾: (برك) أصلٌ يدلُّ على ثَباتِ الشَّيْءِ، يُقالُ: بَرَكَ البَعيرُ يَبْرُكُ بُروكًا، ويُقالُ: بَرَكَ فُلانٌ على الأمرِ، وبارَكَ؛ إذا واظَبَ عَلَيْهِ، والبَرَكَةُ مِنَ الزِّيادَةِ والنَّماءِ، والتَّبْريكُ: أَنْ تَدْعوَ بِالبَرَكَةِ، و﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 54] تَمجيدٌ وتَجْليلٌ[9]، والبركةُ: كثرةُ الخيرِ وتزايده، وخُصَّتِ البركةُ بثبوتِ الخير الإلهي والفيضِ الربّاني، والمباركُ: اسمُ مفعولٍ من ذلك، وهو ما فيه البركةُ[10]، ومعنى ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً﴾، أي: كثيرةُ الخيرِ ومرجوَّة الثواب[11].

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فتح).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 223.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شتّ).
(4) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (شتت).
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10340، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5232.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيّ).
(7) الراغب، المفردات: (حيّ).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حيا).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برك).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (برك).
(11) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1467، وحجازي، التفسير الواضح: 2/ 700.

8) ﴿طَيِّبَةً﴾: (طيب) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلافِ الخبيث[1]، والطّيبُ: الأفْضَلُ من كُلِّ شَيْء، وتتَّسعُ معانيه، فيُقال: أرضٌ طيِّبةٌ للتي تصلحُ للنبات، وريحٌ طيِّبةٌ؛ إذا كانت ليِّنة ليستْ بشديدة، وكلمةٌ طَيِّبة؛ إذا لَم يَكُنْ فيها مَكْروهٌ، وطعمةٌ طيِّبةٌ؛ إذا كانت حلالًا[2]، ومعنى ﴿طَيِّبَةً﴾: تطيبُ بها نفسُ من يستمعُ إليها[3].

9) ﴿تَعْقِلُونَ﴾: (عقل) العقل: نَقيضُ الجَهْلِ، يُقال: عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا؛ إذا عَرَفَ ما كان يجهلُهُ قبلُ، أو انْزَجَرَ عمّا كان يفعله، ورجلٌ عَقولٌ؛ إذا كان حَسَنَ الفَهْم وافِرَ العَقْلِ[4]، والعَقْلُ: الحِجْر والنُّهى، وضِدُّ الحُمق، والعاقِلُ الَّذي يَحْبِس نَفْسَهُ، ويَرُدُّها عَنْ هَواها، والعَقْلُ: القَلْبُ، والمَعْقول: ما تَعْقِله بِقَلْبِكَ، وسُمّي العَقْلُ عَقْلًا؛ لأَنَّه يَعْقِلُ صاحبَهُ عَنِ التَّوَرُّط في المَهالِك، أَي: يَحْبِسه[5]، والعَقْل: القوَّة المتهيِّئة لقبولِ العِلم، ويُقال للذي يَسْتَنبِطُه الإنسانُ بتلكَ القوَّة: عَقْلٌ[6]، أَو هوَ العِلمُ بصفاتِ الأشياءِ من حُسنِها وقُبحِها، وكمالِها ونُقصانِها[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تنظيمُ العلاقاتِ بين الأقاربِ والأصدقاء من المبتلين والأسوياء

تبيِّنُ الآيةُ حكمَ أصحابِ الأعذارِ، كالأعمى والأعرَجِ والمَريضِ، بأنَّه ليس عليهم حرَجٌ في أنْ يأكُلوا مِن بيوت المذكورين في سياق الآية، ولا حرَجَ عليهم أنْ يأكُلوا مجتَمِعينَ أو متفرِّقينَ، في حال دخولهم بُيوتَ غَيرِهم، فلْيُسلِّم بعضُكم على بَعضٍ بتحيَّةِ الإسلام، تحيَّةً مُباركةً طَيِّبةً شَرَعها اللّهُ لعبادِه المؤمنين، مِثلَ هذا التَّبيينِ يبيِّنُ اللّه لكم آياتِه؛ لِتَعقِلوها، وتَعمَلوا بها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طيب).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طيب).
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1467.
(4) العين، الخليل، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عقل).
(6) الراغب، المفردات، ص: 577.
(7) الزبيدي، تاج العروس: (عقل).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

بـيـانُ حُـكْـمِ استئذانِ ذوي الـعـاهـات، وحُكمِ الأكلِ من البوتاتِ

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ عمّا قبله؛ من باب الاستئناف البيانيِّ؛ إذ إنَّه لَمّا ذكر سبحانه من حُرماتِ البيوت المستلزِمة لصيانة الأبضاع على وجهٍ يلزمُ منه إحراز الأموال؛ فكأنَّ سائلًا قد سأل: هل هذا التَّحجير في البيوت سارٍ في الأقارب وغيرهم، وخاصَّةً أصحاب الأعذار في جميع الأحوال ممّا يتعلَّق بالأكل منها وكيفيَّته؟ فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾[1]، وهذا عند من عدَّ هذه الآيةَ متَّصلةً مع قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وهما في غرضٍ واحدٍ، وهو حكمُ الأكل، وأمّا عند من عدَّ الآية منفصلةً عن قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وأنَّها من تمامِ آية الاستئذان؛ فتقديرُ السُّؤال: ما حُكم استئذان الأعمى في الدخول على البيوت؛ إذ الاستئذانُ من أجلِ البصر؟[2].

بلاغةُ الاحتراسِ بالنَّفي بأداة ﴿لَّيْسَ﴾:

نـفـيُ الـحـرجِ عـن أفـعـالٍ، قد تُتوهَّمُ حرمتُها، وهي مباحةٌ

نفي الحرج في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ بأداة ﴿لَّيْسَ﴾ دون غيرِها من أدوات النَّفي؛ لكونها تُستعملُ لِنفي ما يُتوهَّم وقوعُه، وبذلك تكون أنسبَ للمقام؛ لأنَّ أصحابَ الأعذار كانوا يتوهَّمون الإثمَ في عدمِ القيامِ بكلِّ فعلٍ كان عذرهم سببًا فيه، ومنه عدمُ خروجهم للجهاد، أو يتوهَّمون الإثم في أكلهم من بيوت المجاهدين التي أوكلوا بها، أو في أكلهم مع الناس لِما يُسبِّب لهم هذا العذر من إيذاء النّاس، أو في أكلهم من بيوت أهلِ من يصطحبونهم معهم وأقاربِهم؛ لكونهم من المحاويج، أو أنْ يكون توهُّم الإثم من النّاس عند مؤاكلتهم لأصحابِ الأعذارِ بما يسبِّبونه لهم من ظلم في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 315.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 300.

الأكل، ولهذا نفى القرآن الجُناحَ عن هذا الفعل؛ احتراسًا ممّا عساهُ يسبقُ إلى الفهم من حرمته، فأزالَ هذا الوهمَ من الفهم.

دلالةُ ﴿عَلَىٰ﴾ في ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾:

حـرفُ المعنى بين الاستعلاءِ المجازيِّ، والظَّرفيَّة المجازيّة

استُعمل حرف الاستعلاءِ، في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾؛ للاستعلاءِ المجازيِّ، المكنّى به في الآيةِ، عن الإلزامِ والوجوب، والمقصود من الآية، رَفْعُ هذا الإلزام عن المخاطَب، وهو الأعمى والأعرج والمريض الَّذين ألزموا به أنفسهم، من عدم الأكلِ من بيوتِ المذكورين في حالِ غيابهم لغزوٍ أو غيره، ومن عدمِ الأكل مع الجماعة، حرصًا على عدمِ إيذاء غيرهم[1].

فائدةُ تقديمِ المسندِ على المسندِ إليه:

بيانُ مدار الحُكم في رفع الحرجِ عن أصحاب الأعذار

آثرَ النَّظمُ الكريم تقديم ﴿عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ على ﴿حَرَجٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ ولم يقل: (ليس حَرَجٌ على الأعمى)؛ وذلك لأنَّ مصبَّ الفائدة في رفع الحرج عنهم، وللاهتمامِ بشأن أصحابِ الأعذار من الأعمى والأعرج والمريض، والعنايةِ بأحوالهم؛ لأنَّهم كانوا يتحرَّجون بسببِ الأذيَّة التي يسبِّبونها لمن يأكلون معه، سواء في إزعاج الآخرين منهم، أو في عدم قدرتهم على الأكل كما يأكل الآخرون، ويفيدُ التَّقديمُ كذلك اختصاصهم بهذا الحكم، وهو رفعُ الحرج عنهم فيما يتعلَّق بأعذارهم دون الأصحّاء، وفي الأمرين إشارةٌ إلى رحمةِ الله بأصحابِ الأعذار.

معنى (أل) في ألفاظ العاهات والمرض:

ذِكْـرُ عمـومِ المشمولين دليلٌ على سعةِ رحمةِ ربِّ العالمين

لامُ تعريف ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ و﴿ٱلْأَعْرَجِ﴾ و﴿ٱلْمَرِيضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ

(1) ابن عادل، اللباب: 14/ 457.

حَرَجٌ﴾ جنسيَّةٌ، تفيدُ العمومَ، أي: نفيُ الحرجِ يشملُ كلَّ أعمى، وكلَّ أعرج، وكلَّ مريض، وليست خاصَّةً بنوعٍ منهم.

فائدةُ تَكرارِ حرف النَّفي (لا):

دَفْعُ توهُّمِ الاستئنافِ، فيقع خلافُ المقصودِ مِنَ الحُكمِ

كرَّر النَّظمُ الحكيم حرفَ النَّفي (لا) مع المعطوفِ على المَنْفيِّ قبْلَهُ في قولِه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ تأكيدًا لمعنى النَّفي، أي: نفي الحرجِ عن أصحاب الأعذار، وهذا الاستعمالُ كثيرٌ في القرآن الكريم[1]، ولدفع توهُّم اختلاف الحكم، فلو قال: (وعلى الأعرج حرج)؛ لَتوهِّم الاستئنافُ، فكان ذكر (لا) توكيدًا دافعًا لتوهُّم الاستئنافِ، فيقع خلافُ المقصود من إيقاع الحرج على الأعرج والمريض.

بلاغةُ الإطنابِ في إفراد كلِّ مذكورٍ بجملة:

دفْعُ توهُّمِ اجتماعِ أصحاب الأعذارِ في حالٍ واحدة

أُفرِدَ ذِكرُ الأعرج والمريض في جملة تامَّة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، دون أن يقولَ: (ليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج)، وهو أوجز لفظًا، ونكتة ذلك أنَّ إفرادَ كلِّ حالةٍ منها بجملة مستقلَّة، يعطيها حكمًا خاصًّا يتناسب مع واقع هؤلاء، فإنَّ رفْعَ الحرج شمل كلَّ أعمى، وكلَّ أعرج، وكل مريض، وفي جميع الأحوال، ولو جمعهم في جملة واحدة؛ لَفُهِمَ أنَّه لا بدَّ أن يشترك هؤلاء في حال واحدة، كحال الجهاد، أو حال السفر، أو حال الإقامة، فلمّا انفردوا في جملٍ مستقلَّة؛ عُلِمَ إرادة عموم الأحوال، وأثبتَ لكلِّ واحدٍ منهم حكمًا مستقلًّا؛ لأنَّ أعذراهم متفاوتةٌ باختلافِ أسبابها، فالحرجُ مرفوعٌ عن كلٍّ منهم بحسبِ مرضه وعذره، فيرخَّص للأعمى فيما يُشترَطُ فيه البصرُ، وللأعرج فيما يُشترط فيه المشي، وللمريض بحسب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 302.

مرضه، وما يمكن أنْ يسقطَهُ عنه من التَّكليف، فلمّا اختلفتِ الأحوالُ؛ ناسبَ أنْ يُرفَعَ الحرجُ عن كلِّ حالةٍ بحسبها، بخلاف ما لو اشتركَ الجميعُ، واستَوَوا في حُكمٍ واحدٍ، كقول الله تعالى في سورة التوبة في حكم الغزو: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: 91]، وكرَّر كذلك الحرج للزيادة في التقرير والتوكيد على نفي الحرجِ عنهم[1]؛ تخفيفًا عنهم، وفي هذا إيماءٌ إلى شدَّةِ ورَعِ الصَّحابة الكرام، وقوَّةِ إيمانهم، وإحساسهم بمسؤوليَّة قيامهم بالأحكام التي شرعها ﷺ.

بلاغةُ ترتيبِ ذِكر أصحابِ الأعذار:

الأعمى والأعرج والمريضُ مرتَّبون بحسب الضَّرر والغبن

بدأ البيانُ القرآنيُّ بذكر حكم ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، باعتبار البدءِ بالأكثرِ عذرًا من غيرِه، فالأعمى أشدُّ المذكورين عذرًا في عدمِ القدرةِ على التَّكسُّب؛ لاعتماده على غيره في الانتقال وفي معظم أعمال الحياة البدنية، ثم يأتي الأعرجُ في صعوبة الانتقالِ؛ إذ كان التَّكسُّب في زمانهم يغلب في عمل الأبدان[2]، ثم أُخِّرَ المريضُ؛ لأنَّ المريضَ يُرجى برؤُهُ من مرضِه، بخلافِ الأعمى والأعرج؛ فعاهاتُهما مستدامة غالبًا[3]، فالتَّرتيب باعتبار الأشدِّ فالأخفِّ.

فائدةُ إطلاق الكلام وعدم تقييدِهِ:

في إطلاقِ نفيِ الحرجِ عن أهلِ الأعذار، عمومُ كلِّ ما يتوقَّف على العذر

إذا جعلنا الواوَ استئنافيَّةً في قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[4]؛ فتكون نكتةُ إطلاقِ الكلامِ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، دون تقييدٍ كما قيَّده في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾؛ للإشارة إلى

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1328.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 300.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 316.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 575.

إرادةِ العموم في معنى نفي الحرج، وعدم تقييده بالأكل أو بغيره، بحيث يكون المعنى: ليس على هؤلاء حرجٌ في تركِ الأمور الواجبة التي تتوقَّف على واحدٍ منها، وذلك كالجهاد ونحوه، ممّا يتوقَّف على بصر الأعمى، أو سلامة الأعرج، أو صحَّة المريض.

وجهُ تخصيص أهل الزَّمانة بالذِّكر:

أهـلُ الأعـذار أحـقُّ بالمواساةِ والعـنايـةِ من غيرِهم

خصَّ النَّظمُ الحكيم أهلَ الزَّمانة من الأعمى والأعرج والمريض بنفي الحرج فيما يتعلَّق بموطن الأكل وكيفيَّته بالذكر، وبدأ بذكرهم مع أنَّهم داخلون في عموم قولهِ تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ وعموم قوله تعالى المؤكِّد لها: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ﴾؛ لأنَّهم بضرارتهم أحقُّ من الأصحّاء بالمواساة والمشاركة والتَّخفيف، وهذا عند من يرى الواو في قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ عاطفةً، وأنَّ الكلام منتظمٌ فيما يتعلَّق بموطن الأكل وكيفيَّته[1].

دلالةُ الواو في عبارة ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾:

التَّلميحُ إلى رفعِ الحرجِ عن الأكل من البيوت الواردة في السّياق

تحتملُ الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، أن تكونَ عاطفةً، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾، والمعنى: (ليس عليكم حرجٌ في الأكل من بيوتكم)[2]، وهو قولُ جمهور المفسِّرين، أي: نفيُ الحرج، هو عن أصحابِ الزَّمانة وعمَّن سواهم، فلهم أنْ يأكلوا من بيوتِ من سمّى الله تعالى.

ويرى بعضُ المفسِّرين أنَّ الواو استئنافيَّةٌ، وأنَّ نفيَ الحرج عن الثلاثة الأصناف الزَّمنى مقطوعٌ عمّا قبله، وأنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ كلامٌ مستأنفٌ، وأنَّ اللّهَ رفعَ الحرجَ عن الأعمى فيما يتعلَّق بالتَّكليف الذي يُشترط فيه البصرُ، وعن الأعرج فيما يُشترط في التَّكليف به المشي، وما يتعذَّر من الأفعال مع وجود الحرجِ، وعن

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 13/ 318.
(2) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1307.

المريضِ فيما يتعلَّق بالتَّكليف الذي يؤثِّرُ المرضُ في إسقاطه كالصوم، وشروط الصَّلاة وأركانها، والجهاد، ونحو ذلك[1].

نكتةُ الالتفاتِ من المفرد إلى الجمع:

التفت النَّظمُ من لفظِ المفرد ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ و﴿ٱلْأَعْرَجِ﴾ و﴿ٱلْمَرِيضِ﴾ إلى لفظ الجمع ﴿أَنفُسِكُمْ﴾؛ ليتناسبَ مع صيغِ الجمع الواردة بعده، ولِما في هذا الالتفات من إيماءٍ إلى كون الأعمى والأعرج والمريض عددًا قليلًا بالنسبة لأفراد المجتمع المخاطَبين بلفظ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾.

أصحابُ الزَّمانةِ والعاهات، عددُهم الأقلُّ في المجتمعات

نكتةُ عدمِ ذِكرِ الحرجِ فيما يتعلَّقُ بالمخاطَبين:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، لم يأتِ رفعُ الحرج عنهم نصًّا مصرِّحًا به، كما جاء مصرِّحًا به مع الأعمى، والأعرج، والمريض، بل جاء بالحملِ على الحكم السّابق؛ إذ التقدير: (ولا على أنفسكم حرجٌ)؛ لأنَّ المقصودَ برفع الحرج في الآية إنَّما هو عن أولئك العجزة ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ و﴿ٱلْأَعْرَجِ﴾ و﴿ٱلْمَرِيضِ﴾، وأنَّ من دخل بعدهم في هذا الحكم من الأهل والأقارب وغيرهم إنَّما جاء تبعًا لهم؛ وليدلَّ على أنَّهم أولى في هذا المقام من الأهل والأقارب، وأنَّه رُفِعَ الحرجُ عن الأقارب تبعًا لهؤلاء[2]، وكذلك للاكتفاء بذكره فيما مرَّ، والأواخرُ محلُّ الحذف[3]، وقيل: للإشارة إلى مغايرته للمذكور من أنواعِ الحرج؛ ولكون حذفهِ لا يقدحُ في دلالته عليه، لا سيَّما إذا قلنا: إنَّ الدال غيرُ منحصر فيه[4].

مراعاةُ أهلِ الزَّمانةِ أصلٌ، ومراعاةُ مَنْ سِواهم تَبَعٌ لهم

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾:

آثر النَّظم القرآنيُّ استعمالَ الأنفس في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، فلم يقل: (ولا عليكم)، رغم أنَّ المرادَ بالأنفس ذوات

الإيماءُ إلى أنَّ أصلَ النّاس جميعًا إلى نفسٍ واحدة

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 13/ 318.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1328.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 408.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 408.

المخاطَبين، فكأنَّه قيل: ولا عليكم جناحٌ أنْ تأكلوا، أي: ولا على غير من ذُكِرَ من المؤمنين، فالخطابُ للأمَّة؛ وذلك تذكيرٌ للمخاطَبين بأنَّ الكلَّ من نفسٍ واحدة[1]، وأنفسهم كالنَّفس الواحدة، بما يحملهم كذلك على التَّسامح والتَّوادِّ والتَّعاطف، وطيبِ النَّفس فيما بينهم، قال ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنينَ في تَوادِّهِم، وتَراحُمِهِم، وتَعاطُفِهِم مَثَلُ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَداعَى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمَّى»[2].

دلالةُ تخصيصِ الأكلِ بالذِّكر:

بناءُ التَّوازنِ في قاعدة الحقوقِ والواجبات الاجتماعيَّةِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ﴾، خصَّ النَّظم الحكيمُ الأكلَ دون غيره من الأفعال، كالادِّخار أو أخذ ما ليس بمأكول؛ مناسبةً لمقصدِ الآية وسببِ نزولها، فقد كان أغلبها في التحرُّج عن الأكل[3]، ولمقصد القرآن في الحضِّ على إطعامِ الطعام، وعدم منعه عن النّاس، وخاصَّة الضعفاء والأهل والأقارب والوكلاء والأصدقاء، وللإشارة إلى ألّا يجاوزوا إلى الادِّخار، ولا إلى ما ليس بمأكولٍ، وإنْ كان غيرَ محرزٍ عنهم إلّا بإذنٍ منهم[4].

بلاغةُ الاكتفاءِ بذكرِ الأكلِ دونَ الشُّرب:

إباحةُ الأكلِ تقتضي إباحةَ الشُّربِ دون العكس

خصَّ البيانُ القرآنيُّ الأكلَ دونَ الشُّربِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ﴾؛ لأنَّ الحاجةَ إلَى الأكل غالبةٌ، فاكتفى بذكره عن ذكر الشُّرب؛ لدلالته عليه كدلالة الحرِّ على البردِ في قَوْله تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: 81][5]، ولأنَّ إباحةَ الأكلِ تقتضي إباحةَ الشُّرب، دون العكس، فلا يكونُ الأكلُ سائغًا دون شرابٍ من ماءٍ ونحوه، والصَّبر على انعدامِ الأكل محتملٌ أكثرُ من الصَّبر على انعدام الماءِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 316، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 301.
(2) صحيح مسلم، كتاب كتاب البر والصلة والآداب، الحديث رقم: (2586).
(3) ذكر ابن العربي ثمانية أسباب للنزول، أحكام القرآن: 3/ 420.
(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 422.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 464.

فائدةُ ذكرِ ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ والأكلِ فيها:

إلحاقُ انتفاءِ الإثمِ والحرجِ عمَّن ذُكِرَ، بانتفاءِ الحرجِ في بيوتِ أنفسِهم

ذكرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ مع أنَّ نفيَ الحرج فيها أمرٌ معلوم؛ لئلّا يحصلَ من تركها لو تركها ريبةٌ، وليدخل فيها بيوت الأولاد[1] وبيوت الأزواج؛ لاتِّصالهم بهم نسبًا أو دينًا، فنسبةُ البيوت إليهم مجازٌ عقليٌّ[2]، وتوطِئَةً؛ ليَبْنيَ عليه ما يَعطِفُه على جُملتِه مِنَ البُيوتِ الَّتي قُصِدَ إباحةُ الأكلِ منها؛ فإنَّه إذا عُلِمَ أنَّ الإنسانَ لا جُناحَ عليه أنْ يأكُلَ مِن بَيتِه؛ فكذلك لا جُناحَ عليه أنْ يأكُلَ مِن هذه البُيوتِ؛ ليدلَّ على "أنَّ انتفاءَ الإثم والحرج في بيوت الآباء إلَى آخرِه كانتفاءِ الحرج في بيوت أنفسِهم"[3]، أي: إنَّ أكلَ النّاس من بيوتهم لم يذكر هنا؛ لنفي حرجٍ كان متوهَّمًا، وإنَّما ذُكر لإظهارِ التَّسوية في هذا الدين - المبني على كون المؤمنين بعضُهم أولياءُ بعضٍ - بين أكلِهم من بيوت أقاربهم وأصدقائهم، وبين أكلِهم من بيوتهم[4]، وليُشيرَ إلى أنَّ أموالَ هذه القرابةِ كَمالِ الإنسانِ، فيكون سُبحانه قد أدمَجَ في ذلك الحضَّ على صِلَةِ الأرحامِ، ومُعامَلَتِهم مُعامَلةَ الإنسانِ نفْسَه[5].

سرُّ عدمِ ذكرِ بيوتِ الأولادِ:

وَلَدُ الرَّجُلِ بَعضُهُ، وحُكمُهُ حُكمُ نفْسِهِ

لم تذكرِ الآيةُ الكريمة بيوتَ الأولاد عند ذكر بيوت الأقارب؛ لأنَّ التَّعبيرَ بـ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ يتضمَّنها؛ ولأنَّ الآباء والأبناء شيءٌ واحد[6]، فولَدُ الرَّجُلِ بَعضُهُ، وحُكمُه حُكمُ نفْسِه، وبَيتُه بَيتُه[7]، أي: إنَّ بيوتَ الأبناءِ معلومٌ حكمُها بالأولى[8]، "ألا ترى أنَّ الشَّرع يوجب على الولد نفقةَ الوالدين؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 316.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 460.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 460، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 156.
(4) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 156.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 654.
(6) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10339.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 71.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 301.

إذا كانا محتاجين؟"[1]، وبالتالي فبُيوتُ الأبناءِ داخلةٌ في بُيوتهم؛ فاكتفَى بذِكْرِها دونَها، وإلّا فبُيوتُهم أقربُ مِن بُيوتِ مَن ذُكِر في الآية[2]؛ ولأنَّ الأولادَ من كسبِ الأب، ومالُ ابنِ الإنسانِ مالٌ له[3]، قال ﷺ: «إنَّ أَطْيَبَ ما أَكَلْتُم مِنْ كَسْبِكُم، وإنَّ أَوْلادَكُم مِنْ كَسْبِكُم»[4]، أي: كسبُ أولادِكم طيِّبٌ لكم مثلُ كسبِ أنفسِكم، ولقوله ﷺ: «أنتَ ومالُكَ لِوالِدِكَ»[5]، فلزم من ذلك عدمُ ذكر بيوت الأبناء، وليستْ بيوتُ الآباء والأمهات من قبيل ذلك؛ إذ لا يجوز للأبناء التَّصرُّف فيها إلّا بإذن الوالدين أو أحدهما، ولو ذكر بيوت الأبناء؛ لفُهم أنَّها في الأصل كانت ممنوعةً.

دلالةُ جمعِ لفظَي الآباء والأمَّهات:

الرُّخصةُ تشملُ جميعَ الآباء والأمَّهات، وإنْ بَعُدَتِ الأنسابُ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ جمعَ لفظ الأب والأمِّ، في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، ولم يقل: (بيوت أبيكم أو بيوت أمِّكم)؛ وذلك لأنَّ جمع البيوت يقتضي جمع الآباء والأمهات، فالخطابُ لمجموع المؤمنين، فكما لهم بيوتٌ، فلهم آباءٌ، وللدَّلالة على جميعِ الآباء وجميع الأمَّهات، أي: بيوت آبائِكم وأمَّهاتكم، وإنْ بعُدَتْ أنسابكم؛ فإنَّها مرباكم وحرمتها حرمتكم[6].

نكتةُ تقديمِ الآباءِ على الأمَّهات:

البيوتُ تُنسبُ للآباءِ في العُرف الغالبِ المعهود

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الآباءَ على الأمَّهات في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ لأنَّ ذلك أنسبُ بالواقع، فالأب مقدَّمٌ في التوقير على الأم، ولأنَّ البيت يُنسب إليه ابتداءً؛ إذ الأبُ هو الحاكمُ في بيته دائمًا، والمالُ له[7].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 655.
(2) ابن القيم، إعلام الموقعين: 1/ 88.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 422.
(4) أخرجه أبو داود، كتاب الإجازة، الحديث رقم: (3530)، والنَّسائي، كتاب البيوع، الحديث رقم: (4450)، والتِّرمذي، كتاب الأحكام، الحديث رقم: (1358).
(5) أخرجه ابن ماجة، كتاب التجارات، الحديث رقم: (2291)، وأخرجه أحمد، الحديث رقم: (6902).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 316.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 316

نكتةُ جمع الإخوة والأخوات:

رخصةُ الأكلِ تشملُ جميعَ بيوتِ الإخوة والأخوات

جاء التَّعبيرُ عن الإخوة والأخوات بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الرُّخصةَ تشمل بيوتَ جميع الإخوة والأخوات من الأبوين أو الأب أو الأم بالنَّسب أو الرَّضاع، فإنَّهم من أولى من رضي بذلك بعد الوالدين[1]، وهذا يشيرُ إلى الترابط الأسري في الإسلام.

مناسبةُ تقديمِ الإخوة على الأخوات:

مراعاةُ صاحبِ الحقِّ في النَّفقة والتَّصرُّف

قدَّم البيانُ القرآنيُّ ذكرَ بيوتِ الإخوة على الأخوات؛ من أجل أنَّ وليَّ البيت إذا كانت الأخت مُتزوّجة هو زوجها، بخلاف بيوت الإخوة؛ فإنَّ الأخَ هو وليُّ البيتِ، والحاكم فيه، وهذا التَّقديمُ يناسبُ سياق الآيات، وهو رفعُ الحرج عن الأكل من البيوت، وهو من أنواع المال[2]، ويناسبُ عادةَ القرآنِ في تقديم الذكور على الإناث في سياق الإنفاقِ.

نكتةُ جمعِ الأعمام والعمّات:

رفعُ الحرجِ المتكلِّف في الأكلِ، يشملُ بيوتِ إخوةِ الآباء

عبَّر النَّظمُ الحكيم عن الأعمام والعمّات بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الرُّخصةَ ورفع الحرج المتكلَّف في الأكل شملَتْ جميع الأعمام والعمّات، فإنَّهم إخوةُ آبائكم سواءٌ كانوا أشقاءَ أو إخوةً لأبٍ أو أمٍّ، ولو أفردَ العمَّ أو العمَّة؛ لتوهُّم أنَّه الشقيق فقط، فإنَّه أحقُّ بالاسم[3].

سرُّ تقديمِ الأعمام والأخوال على الإناث:

التَّقديمُ إنَّما يكون بالأولويَّة، لمن له الكفالةُ والإنفاق

تقديمُ الأعمام على العمّات والأخوال على الخالات في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ لضعفِ العمّات والخالات، فالولايةُ في بيوتهنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 316.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 316.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 316.

لأزواجهنَّ لا لهنَّ؛ ولأنَّ عادةَ القرآن تقديمُ الذُّكور على الإناث في سياقِ الإنفاق[1].

دلالةُ ﴿مَا﴾ وفائدةُ استعمالها:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، موصولةٌ صادقةٌ على المكان أو الطَّعام، أي: على غير العاقل، وهو غالبُ استعمالها، وبهذا يكون العطف على ﴿بُيُوتِ﴾، لا على ﴿خَلَٰتِكُمْ﴾[2]، واستُعملت لإفادة عموم كلِّ ما ثبتَتْ له صلةُ الموصول من الموجوداتِ، سواءٌ كان هذا الطَّعام موجودًا في بيوتٍ أو في خزائنَ، أو في ضيعٍ وبساتين، أو غير ذلك من الأماكن، وبهذا يكون التَّعبيرُ بـ ﴿مَا﴾ إيجازًا عن التَّعبير بكلِّ ما سبق.

إباحةُ الأكلِ، تشملُ كلَّ ما له حكمُ البيوت في الاستعمالِ

بلاغةُ الكنايةِ ودلالتها:

كلمةُ مَفاتح في قوله تعالى: ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ جمع مِفتح – بكسر الميم – وهو آلةُ الفتح، وملك هذه المفاتح كنايةٌ عن كونِ الشَّيء تحت يدِ الشخص وتصرُّفه وحفظه، بوكالةٍ أو ولايةٍ، "لا عن كونه في ملكه"[3]، بقرينةِ كون المملوكِ المفاتحَ دونَ الدّورِ أو الحوائط[4]، والمعنى: يرخِّص لكم الأكلَ من البيوت التي تملكون التَّصرُّف فيها بإذن أصحابِها، كأنْ تكونوا وكلاء عنهم في التَّصرُّف في أموالهم[5]، كوكيل الرجل وقيِّمه في ضيعته وماشيته، والمختزن للطَّعام وناطور الحائط ذي الثمر، فلا بأس عليهم أنْ يأكلوا من الثَّمر، ويشربوا من لبنِ الماشية بدون إذن، ولا يتجاوز شبع بطنه، وفي هذه الكناية توكيدٌ لرخصةِ اللّه لهم بجواز أكلِ الشخص ممّا هو تحت يده وتصرُّفه.

بيانُ الرُّخصةِ بجواز الأكل ممّا هو تحتَ الحيازةِ والتَّصرُّف

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 316 - 317.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 301.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 461.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 302.
(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 156.

بلاغةُ استعمال مفردة (الصَّديق):

الصِّدقُ في المودَّة جعلَ للصَّديق مرتبةَ القرابة

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ (الصَّديق) في قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ دون الصاحب أو القرين؛ لكونه أنسبَ مع السّياق الَّذي هو سياقُ مسامحةٍ قائمة على محبَّة، وهذا يكون في الصَّديق، وربَّما لا يكون في الصّاحب أو القرين؛ ولأنَّ لفظ الصديق يتميَّز بمادَّته، وهي الصدق، فإنَّ اشتقاق اسمه من صدقِ المحبَّة وصفاء المودَّة، فهو الَّذي ساوى باطنُه ظاهرَهُ في إخلاص المودَّة[1]، وهو من يصدقُ في مودَّتك وتصدقُ في مودَّته[2].

نكتةُ اقترانِ الصَّديق بالأقارب:

الصَّديقُ له مودَّةٌ ومكانة، تعجزُ عنها الإبانة

قرنَ النَّظمُ الحكيم الصَّديقَ بالقرابة المحضة الأكيدةِ في نفي الحرج من الأكل، في قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ للصَّداقةِ حقًّا، وهو كذلك، والسَّببُ: الصِّلةُ التي بيْنَك وبيْنَه[3]، وتنبيهًا على شريفِ رُتبةِ الصَّداقةِ، ولَطيفِ سِرِّها، وخَفيِّ أمرِها، قال جَعفرُ الصّادق: (مِن عِظَمِ حُرمةِ الصَّديقِ أن جعَلَهُ كالنَّفْسِ والأبِ ومَن معَه)[4]؛ ولأنَّ قربَ المودَّة من الصَّديق لصيقٌ[5]، ولأنَّ محبَّة الصِّلة مع الأصدقاء ممّا هو موقورٌ في النُّفوس[6]؛ ولأنَّ الصَّديق أرضى بالتَّبسُّطِ وأَسرُّ به من كثيرٍ من ذوي القرابة، روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الصديق أكبر من الوالدين إنَّ الجهنَّميّين لَمّا استغاثوا؛ لم يستغيثوا بالآباء والأمهات، فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشعراء: 100 - 101]، وقد كان السَّلف ينبسطون بأكل أصدقائهم من بيوتهم، ولو كانوا غُيَّبًا،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 656.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1470.
(3) ابن عثيمين، تفسير النور، ص: 414.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 317.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 316.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 302.

ويُحكى عن الحسن أنَّه دخل داره، وإذا حلْقَةٌ من أصدقائه، وقد استلّوا سلالًا من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمةِ، وهم مكِبّون عليها يأكلون، فتهلَّلت أساريرُ وجهه سرورًا، وضحكَ، وقال: هكذا وجدناهم، هكذا وجدناهم، يريدُ كبراءَ الصَّحابة، ومن لقيهم من البدريّين[1]، ولهذا لا تجوز شهادةُ الصديق لصديقه، كما لا تجوزُ شهادة القريب لقريبه[2].

نكتةُ إفرادِ لفظ الصَّديق:

صِـــدْقُ المـــودَّة قليلٌ، والصِّدق في المحبَّة ثقيلٌ

لفظُ الصَّديق يقعُ على الواحد والجمع، والمراد به في قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ الجمع، أي: الجنس الصادق بالجماعة، بقرينة إضافته إلى ضميرِ جماعة المخاطَبين، وهو اسمٌ تجوزُ فيه المطابقة لمن يجري عليه إنْ كان وصفًا أو خبرًا في الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث وهو الأصل[3]، ولكنَّ النَّظمَ الحكيم عبَّر به بلفظ المفرد لا الجمع، أي: لم يقل: (أصدقائِكم)؛ للإشارة إلى قلَّة الأصدقاء[4]، قال القشيري: "وعزيزٌ من يصدقُ في الصَّداقة، فيكون في الباطن، كما يرى في الظاهر، ولا يكون في الوجه كالمرآة، ومن ورائك كالمقراض"[5]، وقد نُقل عن هشام بن عبد الملك أنَّه قال: (نِلتُ ما نلتُ حتى الخلافة، وأعوزني صديقٌ لا أحتشمُ منه)؛ وللإشارة إلى أنَّ شأنَ الصداقةِ رفْعُ الاثنينية[6]، أي: كأنَّ الصديقَين رجلٌ واحد؛ ولأنَّ الصَّداقة الحقَّة هي ما كانت لله غير متعدِّدة الأغراض، فهي إذًا لا تتعدَّد[7]، فصداقةُ المؤمنين واحدة، صداقةٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 410.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 316.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 302.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 317.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 623.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 410.
(7) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10592.

في اللّه؛ ولذلك أفردها، ولأنَّهم حتى إنْ كانوا جماعةً لا بُدَّ أنْ يكونوا على قلبِ رجلٍ واحد، وإلّا ما كانوا أصدقاء[1].

نكتةُ تأخيرِ الصَّديق عن الأقارب:

حقوقُ القرابةِ نظامٌ جبريٌّ، وحقوقُ الصَّداقة أصلٌ فطريٌّ

أخَّر القرآنُ الكريم ذِكرَ الصديق عن الجميع رغمَ مكانتِه، واقترانه بأهلِ الإنسان وأقاربِه؛ لأنَّ الأقاربَ المذكورين متَّصلون، مع من أباحَ اللّه لهم الأكلَ من بيوتهم، اتِّصالًا نسَبيًّا، فهم كأنفسِهم، وعلى هذا فقد قدَّم الأقربَ فالأقرب[2]، فالأقارب صلتهم واجبةٌ، واللّه ﷻ جعلهم جبرًا عن العبد لا بإرادته يختار أقاربه، بخلاف الصَّديق فهو اختيارُ العقل والنفس والأخلاق، وهذا فيه إشارةٌ إلى بيان مكانةِ القرابة في الإسلام، وإلى أنَّ الأصلَ تقديمُ القرابة.

سرُّ تخصيصِ المنصوص عليهم بالذِّكر:

التَّبسُّطُ فيما بين الأقرباء والأصدقاء، عُرْفٌ مألوفٌ في النّاس

خصَّ البيانُ القرآني هؤلاءِ الأصنافَ بالذِّكر، في رفْعِ الحرج المتكلَّف دون غيرهم، في قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡ﴾؛ لأنَّه عُلِمَ بالعادة أنَّ هؤلاءِ القومَ المذكورين تطيبُ أنفسُهم بأكلِ من يدخل عليهم بدون دعوة[3]، والعادةُ كالإذن في ذلك[4]، ولأنَّهم اعتادوا التبسُّط فيما بينهم، والرضا فيهم محقَّق غالبًا[5]، وكذلك في تخصيصهم - وهم جميعُهم من الأرحام ما عدا الصَّديقَ - دعوةٌ إلى صلتهم، وترسيخ العلاقة فيما بينهم، وهذا يؤدّي إلى ترابطِ الأُسر وقيامها على المودَّة والمحبَّة.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10339.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 462.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 301.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 422.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 115، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 196، والمراغي، تفسير المراغي: 18/ 136.

بلاغةُ ترتيبِ الأصناف بالذِّكرِ:

ترتيبُ المذكورين باعتبار الحقوق الشَّرعيَّة ثمَّ العرفيَّة

جاء ترتيبُ الأصناف المذكورين، في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ ابتداءً من الآباء وانتهاء بالصديق، مُلاحِظًا فيه الترتيبَ اللفظيَّ والموضوعيَّ، بحسب الحقوق الشَّرعيَّة فالعرفيَّة؛ فقدْ بدأتْ ببيتِ الإنسان نفسِه، ثمَّ بيوتِ الآباء، فالأمهاتِ، فالإخوة، فالأخواتِ، فالأعمام فالعمات، فالأخوال فالخالات، فالبيوتِ التي يملكون التَّصرُّف فيها، فبيوت الأصدقاء، وكان التَّعبيرُ عنها بألفاظٍ جاءت متناسبةً متناغمةً في الزِّنة: ﴿ءَابَآئِكُمۡ﴾، ﴿أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾، و﴿إِخۡوَٰنِكُمۡ﴾، و﴿أَعۡمَٰمِكُمۡ﴾، و﴿عَمَّٰتِكُمۡ﴾[1]، وهذا الترتيب هو ترتيبٌ تنازليٌّ في رفعِ الحرج، حسب درجةِ القرابة[2]، وفيه من التَّهذيب ما فيه، وذلك بانتقاءِ الكلامِ على مقتضى البلاغة، بتقديم الأقرب فالأقرب[3].

نكتةُ تَكرار لفظ البيوت:

البيوتُ عادةً لا تتماثلُ، والتَّفاضل بينها لا يُتغافل

كُرِّر ذكرُ لفظِ البيوت في الآية الكريمة عشر مرّات، ولو قال: (أنْ تأكلوا من بيوتكم وبيوت آبائكم وأمهاتكم وإخوانكم)؛ لَفُهِمَ المقصودُ، وذلك للإيماء إلى انفراد كلِّ بيت بنوعٍ خصوصيَّة، فإنَّ درجةَ بيتِ الأب ليست كدرجة بيت الأخ، ودرجةَ بيت العم ليست كدرجةِ بيت الخال، ودرجةَ بيت الأخ ليست كدرجة بيت الأخت، فكان التَّكرارُ مفيدًا هذا الانفراد وتلك الخصوصيَّة، ولكي تتفاوتَ معايير النظر فيها.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 657، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10157.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1330.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 656.

وللإشارةِ إلى أهميَّة البيوت في المجتمع المسلم، وأنَّها أهمُّ محضنٍ تربويٍّ، وخاصَّة بيوت الأهل والأقارب، وللتناسب مع المقصدِ العام للسورة (النور)، التي دارت حولَ المحافظة على البيوتِ المسلمة، والتي تُعدُّ أكثر سورة ورد فيها ذِكرُ البيوت في القرآن الكريم؛ إذ ذُكِرَتِ البيوت في القرآن أربعَ عشرةَ مرَّة: عشرةٌ منها في سورة النور، وهي سورةٌ تشتملُ على أحكامٍ من شأنها حماية البيوت، وإقامتها على دعائم الحُبِّ والستر والعفَّة، وكذلك في التَّكرارِ إيماءٌ بأنَّ لكلِّ بيت خصوصيَّتَهُ.

دلالةُ ﴿أَوْ﴾ في السّياق المحكم:

مـفـادُ التَّـخـيـيرِ في الـوقـت، أو بحسب الاعتبارِ الاجتماعي

حرفُ العطف ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؛ للتَّخيير في الوقت، ومعنى هذا أنَّه لا يُتصوَّر أن يأكلَ الآكلُ من هذه البيوت كلِّها في وقتٍ واحد، فخُيِّر بينها، أو للتَّخيير في الانتقاء، فقد تكون العلاقةُ الاجتماعيَّة سويَّةً مع شخصٍ دون آخر، وتكون الرابطةُ مع أحد هذه البيوت أوضحَ من غيرها، فالتَّخييرُ للمخاطَبين بهذا الاعتبار، أي: إن لم تأكل في هذه البيوت فكُلْ في تلك، فالتَّخييرُ راجعٌ إلى الاعتبار الاجتماعيِّ.

بلاغةُ الكناية في سياق الآية:

الإشـــارةُ إلى أهميَّة البيوتِ، في كونها محضنَ الأُنسِ والمودَّة

كنّى البيانُ القرآنيُّ عن الأموال بالبيوتِ التي هي حرزُ الأموال ومقرُّها من بابِ تسميةِ الشَّيء بما جاوره، كقولهم: (سال الميزاب، وجرى النهر)[1]، للإشارة إلى أهميَّة البيوت التي يتحقَّق بها الأنس، وفي هذا إيماءٌ إلى ضرورةِ تحقُّق الأُنس والمحبَّة والمودَّة في

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 656.

هذه الرُّخصة التي شرعَها الله تعالى، وهي الأكلُ من بيوتِ الأهل والأقاربِ والوكلاء والأصدقاء.

علَّةُ فصلِ الجملة عن الكلام السّابق:

بيانُ أنَّ الفصلَ محمولٌ على كمال الاتِّصال أو شبهه

فُصِلَت جملة ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا﴾، إمّا لكونها تأكيدًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ﴾[1]، فهي من كمال الاتِّصال، وإمّا للاستئناف البيانيِّ لبيانِ حكمٍ آخرَ من جنسِ ما بُيِّنَ قبله[2]؛ إذ بعد أنْ ذكرَ الأكلَ ذكرَ حاله وكيفيَّته[3]، فهي من شبهِ كمال الاتصال، كأنَّ سائلًا يقول: هل نفيُ الحرج في الأكل من بيوت من ذكر خاصٌّ فيما إذا كان الأكل مع أهل تلك البيوت أم لا؟ فأُجيب بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا﴾، أي: مجتمعين مع أهلِ تلك البيوت في الأكل أو أشتاتًا، أي: متفرِّقين بأن يأكل كلٌّ منكم وحده ليس معه صاحب البيت[4]، والَّذي يُقوّي الاستئناف البياني ما ورد في سببِ نزول الآية، حيث كان فريقٌ من المؤمنين يتحرَّجون أنْ يأكلوا طعامَهم مُنفردين، أو كان الغنيُّ منهم يدخلُ على الفقيرِ من ذوي قرابته، فيدعوه إلى طعامِه، فيقول: إنّي أتحرَّجُ أنْ آكلَ معك، وأنا غنيٌّ، وأنت فقيرٌ، أو كان قومٌ من الأنصار لا يأكلون إذا نزلَ بهم ضيفٌ إلّا مع ضيفِهم، أو كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعامًا؛ عزلوا للأعمى وأشباهِه طعامًا على حدةٍ، فرُخِّص لهم في أنْ يأكلوا كيف شاؤوا.

سرُّ تقديمِ الخبر على المبتدأ:

ملمحُ الحرصِ على مشاعر أصحاب الخصوصيّات

في تقديم خبر ليس - وهو ﴿عَلَيْكُمْ﴾ - على اسمها - وهو ﴿جُنَاحٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ﴾؛ إذ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 302.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 196.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 317.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 411.

لم يقل: (ليس جناحٌ عَلَيْكُم) اهتمامٌ وعنايةٌ بشأن المخاطَبين من الأعمى والأعرج والمريض، وذوات المؤمنين المخاطَبين، ورحمةٌ بهم؛ لأنَّهم كانوا يتحرَّجون حرجًا متكلَّفًا في أنْ يأكلوا مجتمعين أو متفرِّقين؛ حرصًا على مشاعر بعضهم.

نكتةُ الفرقِ بين نفي (الحرج) و(الجناح):

نفيُ الحرجِ فيما اتَّسعت دائرته، ونفيُ الجناح فيما وردَ بين أمرين

غايرَ البيانُ القرآنيُّ بين المنفيِّ في الآية؛ إذ عبَّر عنه بالحرج في بدايتها بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟﴾، وعبَّر عنه بالجُناح في تمامها؛ إذ قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، وتكمنُ نكتة هذه المغايرة في اختيارِ اللَّفظِ الأنسب لموضعه، أي: لمّا كان النَّفيُ في الآية فيما اتَّسعت دائرته، أي: واقعًا على أمور كثيرةٍ من عدم المشاركة بالجهاد أو بالأكل من أصحاب الأعذار، أو بأيِّ عملٍ بسبب العذر، وعلى أشخاص كثيرين سواءٌ من أصحاب الأعذارِ أو غيرهم من المخاطَبين، أو من يأتي بعدهم من المؤمنين؛ ناسبَ استعمال لفظ ﴿حَرَجٌ﴾ الذي يدلُّ في أصله على تَجَمُّع الشَّيْءِ وضيقه[1]؛ ليكون نفيُهُ أدلَّ على تحقُّق السَّعةِ وأنسبَ، ولمّا كان النفيُ في الآية واقعًا فيما ورد فيه بين أمرين: هما الأكل جميعًا أو متفرِّقين؛ ناسبَ استعمالُ لفظ ﴿حَرَجٌ﴾ الذي يدلُّ في أصله على الميل[2]؛ ليكون نفيُهُ أدلَّ على التخيير بين هذين الأمرين[3].

دلالةُ (على) في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

الاستعلاءُ المجازيُّ يفيدُ الإلزامَ والظَّرفيَّةَ المجازيَّة

معنى حرف الجرِّ (على) في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ هو الاستعلاءُ المجازي المكنّى به في الآية عن الإلزام والوجوبِ، والمقصودُ من الآية رفْعُ هذا الإلزام عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنح).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 411.

المخاطَبين الذين أَلزموا به أنفسَهم من عدمِ الأكل منفردين، فإنَّه إنْ لم يجدوا مَنْ يأكل معهم؛ عافوا الطَّعام.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿جُنَاحٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿جُنَاحٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾؛ لإفادةِ عمومِ نفيِ أيِّ شيء من الإثم الَّذي من شأنه أنْ يميلَ بصاحبِهِ عن السّواء، أي: ليس عليكم أيُّ شيء من الإثم في أنْ تأكلوا مجتمعين، وإنْ كان بينكم ناقصُ الخِلقة؛ لأنَّ من كان معرَّضًا للآفات جديرٌ بأنْ يرحم المبتلى، فلا يستقذره حذرًا من انعكاسِ الحال، أو متفرِّقين لغير قصد الاستقذار، والترفُّع والإضرار[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى يُسرِ الإسلام، وبُعده عن التَّكلُّف في التَّشدُّد على النَّفس مع المحافظة على حقوق الضُّعفاء وحماية مشاعرهم.

نـفـيُ عـمـومِ الإثمِ عن كيفيَّةِ الأكـل، أيسرُ فـي البُعدِ عن التَّكلُّف

نكتةُ إيراد ﴿أَن﴾ مع المصدر المؤوَّل الفعليّ:

جاء التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن تَأْكُلُوا۟﴾ دون الصَّريح، في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، فلم يقل: (ليس عليكم جناحٌ في أكلكم جميعًا أو أشتاتًا)؛ للإشارة إلى استمرارِ نفي الحرجِ في تكرارِ الأكل مجتمعين أو متفرِّقين؛ لِما يدلُّ عليه الفعل المضارع ﴿تَأْكُلُوا۟﴾ من تجدُّدِ هذا الأكل، ونفيُ الحرجِ يتجدَّدُ بتجدُّده، بما يدلُّ على زيادةِ نفي الحرج عن الآكلين، وعلى عِظَمِ يُسر شريعة الإسلام.

تـجـدُّدُ نـفـي الـحـرجِ عـن الآكـلـين، دليلٌ على عِظَمِ يُسر الإسلام

دلالةُ تقديمِ ﴿جَمِيعًا﴾ على ﴿أَشْتَاتًا﴾:

دلَّ تقديمُ ﴿جَمِيعًا﴾ على ﴿أَشْتَاتًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ على أنَّ الأكلَ في جماعةٍ أفضَلُ وأبرَكُ[2]، ويؤكِّد ذلك ما رويَ أنَّ رجلًا قال للنَّبيِّ ﷺ: إنّا نأكلُ ولا نشبَع، فقال:

الاجـتـمـاعُ على الـطَّـعـامِ سُـنَّـةٌ فضلى، وبركة عظمى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.

«فَلَعَلَّكُم تَأْكُلونَ مُتَفَرِّقينَ، اجْتَمِعوا على طَعامِكُم، واذْكُروا اسْمَ اللّه؛ يُبارِكْ لَكُم فيهِ»[1]، وعن عمرَ ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «كُلوا جَميعًا، ولا تَفَرَّقوا؛ فإنَّ البَرَكَةَ مَعَ الجَماعَةِ»[2]، وفي التقديم وما ورد في السُّنَّة ما يؤكِّد أنَّ النَّفي في الآية هو نفيٌ للحرج، لا نفيٌ للفضيلةِ، وإلّا فالأفضلُ الاجتماعُ على الطَّعام[3].

دلالةُ ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾:

رخصةُ اللهِ في أكلِ الإنسان وحدَهُ، لغير شحٍّ ولا استقذارٍ

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿أَشْتَاتًا﴾ على ﴿جَمِيعًا﴾ الذي هو حالٌ من ﴿تَأْكُلُوا﴾ بأداة ﴿أَوْ﴾ التي تفيد التَّخيير في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾: للدَّلالة على الإباحة، أي: التخيير بين أنْ يأكلَ الرَّجُلُ وحْدَهُ، وأنْ يأكل معَ الجماعةِ حسب الظروف والأحوال، أي: إنَّ الرخصةَ في الأمرين معًا[4]، وذلك إذا كان قد أكلَ وحدَهُ، ليس عن شَرَهٍ وشُحٍّ، يجعلانه يؤثرُ نفسَهُ بما بين يديه من طعام، دون أنْ يلتفتَ إلى من حوله من زوجٍ وولد وخادم؛ للأثر: «أَلا أُنَبِّئُكَ بِشَرِّ النّاسِ؟ مَن أكلَ وحدَهُ، ومنع رفدَهُ، وضربَ عبدَهُ»[5]، وليس قصدَ الاستقذارِ والتَّرَفُّعِ والإضرار بمن هم من أصحاب الأعذار[6].

بديعُ فنِّ الطِّباق وفائدته:

زيادةُ إيضاحِ المعنى بأوجزِ عبارةٍ وأحسنها

في قوله تعالى: ﴿أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ جَمع بين لفظتين هما: ﴿جَمِيعًا﴾ و﴿أَشْتَاتًا﴾ تضادتا تضادًّا أوجبَ لهما وصفهما بالمطابقة؛ لأنَّ المعنى (جميعًا أو متفرِّقًا)[7]، وهذه المطابقة تزيدُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318، والحديث أخرجه ابن ماجه برقم: (3286).
(2) أخرجه ابن ماجة برقم: (3287).
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 575.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 86.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1332، والحديث أخرجه السيوطي في الجامع الصغير برقم: (2884).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 657.

الكلامَ حسنًا، وتزيد المعنى إيضاحًا بأوجزِ عبارة، وهو سَعةُ الأمر فيما يتعلَّق بتخيير المخاطَبين بكيفيَّة الأكل، وعدم التكلُّف فيه، بما يدلُّ على رحمةِ الشَّريعة ويُسرها وكمالها.

بلاغةُ الحالِ من فعل الأكل:

المبالغةُ في وصفِ حالِ المخاطَبين، أنسبُ في تحقيقِ المراد منهم

انتصبَ ﴿جَمِيعًا﴾، ﴿أَشْتَاتًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ على الحال، أي: حال كونكم مجتمعين أو متفرِّقين[1]، وقد تكون ﴿أَشْتَاتًا﴾ في الأصْلِ مصدرًا، فهي جمع شَتٍّ، يُقال: شَتَّ الأمرُ يشتُّ شتًّا وشتاتًا؛ إذا تفرَّقَ، فيكونُ البيانُ القرآنيُّ قد وصَفَ به كيفيَّةَ الأكل متفرِّقين مُبالَغةً[2]، لما كانوا يتحرَّجون من الأكل متفرِّقين تحرُّجًا متكلَّفًا لا ترضاهُ الشَّريعة.

دلالةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم﴾:

القرابةُ والصَّداقةُ والمخالطةُ، أسبابٌ موجبة لحسن الأدبِ

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ﴾ تحتملُ أنْ تكون عاطفةً[3]، فيها معنى السببيَّة، أي: لَمّا ذكر الإذنَ بالأكل من البيوت وكيفيَّته؛ اقتضى ذلك ذكرَ الحال التي يكون عليها الداخل إلى تلك البيوت[4]، وفيها معنى التَّعقيب بالتزام الأدب في التَّعامل، فإنَّها تدلُّ على الشُّروع مباشرةً في رعايةِ الأدب عند مباشرة ما رُخِّص فيه[5]، أو أنْ تكون تفريعيَّة، أي: هي تفريعٌ على الإذن لهم في الأكل من هذه البيوت بأنْ ذكَّرهم بأدبِ الدُّخول المتقدِّم.

دلالةُ تعليق الشَّرط بـ (إذا):

الإيماءُ إلى تقوية العلاقات بتحقيق دخول البيوتات

آثر النَّظمُ الكريم استعمال (إذا) الشَّرطيَّة - الدّالَّةِ على المستقبل، المفيدةِ في الأصل الجزم بوقوع مدخولها في قوله تعالى:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 72.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 196.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 652.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 411.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ﴾، دون (إن) التي تفيدُ عدمَ تحقُّق الوقوع، لمناسبة المقام ببيان أحكام دخول البيوت وإيضاحِها، وفيه بشارةٌ بأنَّهم - أي: مِنْ خاطبهم النَّصُّ القرآنيُّ، وهم الصَّحابة الكرام - يطيعون فيما أرشدهم اللهُ به فيما يتعلَّق بالأكل من المواطن الَّتي ذكرها، وكيفيَّة الأكل منها، وحالهم عند دخولها، بعد أنْ كانوا تحرَّجوا من ذلك كلِّه حين أنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النِّساء: 29][1]، وأنَّ ذلك كلَّه أمرٌ محقَّقٌ منهم، كما أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ تلك البيوت يجب أن تُدخل، وليس لأحدٍ أن يقطع أصحابها، فالمسلم شديدُ التَّعلُّق بأقاربه وأصدقائه، فلا يُتصوَّر - في مَن في قلبِهِ تعظيمٌ لحرمات المؤمنين - التَّقصيرُ في دخول بيوتهم، ولما تتركه الزِّيارة من أثر نفسيٍّ واجتماعيٍّ أمرَ الحقُّ ﷻ بزيارة تلك البيوت، وإبقاء الصِّلة قائمةً.

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن فعل الدخول بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾؛ لكونه سُبِقَ بأداة الشَّرط (إذا) التي تفيدُ القطعَ بوقوع الشَّرط، وهذا يناسبهُ أنْ يقترنَ الفعل الماضي بها؛ لكون الماضي أقربَ إلى القطعِ من المستقبل غالبًا، فالتَّعبيرُ بالفعل الماضي يفيدُ ثبوتَ هذا الحكم، أي: حكم دخول البيوت.

حكمُ دخول البيوت حكمٌ ثابتٌ قاطعٌ لا تغييرَ فيه

دلالةُ تنكير لفظ ﴿بُيُوتًا﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿بُيُوتًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ في سياق الشرط؛ لإفادةِ العموم، فتشمل البيوتَ كلَّها[2]، بيتَ الإنسان وبيتَ غيره، سواءٌ كان في البيت ساكنٌ أم لا[3]، أيَّ بيوتٍ كانت، سواء كانت مملوكةً

كلُّ ما يصدق عليه اسمُ البيت، فهو داخلٌ في حكم السَّلام

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 426.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 575.

أم لا، مساجدَ أم غيرها[1]، أي: يُرشدُ اللهُ المؤمنين أنْ يسلِّموا عقبَ دخول أيِّ بيتٍ كان، والمعنى: فإذا دخلتم بيوتًا من بيوتِ المسلمين، أو بيتًا من بيوت اللّه تعالى فسلموا، فاللّه جلَّ ثناؤه لم يخصِّصْ من ذلك بيتًا دون بيت، فكان معلومًا؛ إذ لم يخصِّص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنَّه معنيٌّ بها جميعها؛ مساجدها وغير مساجدها[2].

دلالةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَسَلِّمُواْ﴾:

السَّلام عند الدُّخول من مأثور سنَّة الرَّسول

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، رابطةٌ لجواب الشَّرط[3]، تفيد التَّأكيد على أنَّ دخول البيوت يقتضي السَّلام، والمعنى: فسلِّموا على أنفسِكم عقبَ الدُّخول[4]، أي: فابدؤوا بالسَّلام على أهلها[5].

دلالةُ فعلِ الأمر بالسَّلام في ﴿فَسَلِّمُواْ﴾:

الأصلُ في الأمرِ الوجوبُ، والحكم يتبع أحوال المسلَّمِ عليهم

غرضُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ مختلفٌ فيه بين الفقهاء، فقيل: سُنَّة، وهو المشهور، وتاركه واقعٌ بالمكروه، ولتأكيدِ الأمرِ في استحبابِ السَّلام؛ أكَّده بالمصدر وبالوصف، وقال بعضهم: السَّلامُ سُنَّةٌ على الكفاية، وقيل: السَّلامُ واجبٌ[6]، والصَّحيح أنَّ التَّسليم يتبع حال الدّاخل إن كان وحدَه أو مع غيره، وإن كان داخلًا على جماعةٍ بينهم طمأنينة وسلام، أو خصومة ونزاع، فإنَّ الحكمَ يتبع الأحوال، والأصل في الأمر أنَّه للوجوب، فكيف إذا كان من اللّه تعالى.

فائدةُ استعمالِ لفظ ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾:

المؤمنُ يُنزِّل إخوانَهُ منزلةَ نفسه، ويحبُّ لهم ما يحبُّ لها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن المسَلَّم عليهم، وهم من في البيوت بـ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 227.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 653.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 258.
(6) ابن عادل، اللباب: 6/ 538.

﴿أَنفُسِكُمْ﴾، في قول تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ لتنزيلهم منزلتها لشدَّة الاتِّصال[1]، فالمعنى: فسلِّموا على أهلِها الذين بمنزلة أنفسِكم؛ لِما بينكم وبينهُم من القرابة الدّينيةِ والنَّسبيةِ الموجبة لذلك[2]، فالمؤمنُ للمُؤمنِ كالبُنْيانِ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا، فهو كقَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: 128]، والمعنى إذًا: سَلِّموا على مَن فيها؛ لأنَّكم وإيّاهم نفْسٌ واحدةٌ[3]، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النِّساء: 29][4]، فالمسلمون كأنَّهم شخصٌ واحدٌ مِن تَوادُدِهم، وتراحمِهم، وتعاطفِهم[5]، وفي هذا تَنبيهٌ على السِّرِّ الَّذي اقْتَضى إباحةَ الأكْلِ مِن هذه البُيوتِ المعدودةِ، وأنَّ ذلك إنَّما كان لأنَّها بالنِّسبةِ إلى الدّاخلِ كبَيْتِ نفْسِه؛ لاتِّحادِ القرابةِ، فلْيَطِبْ نفْسًا بالبساطِ فيها[6]، ولينتبَّه إلى أنَّ المؤمنَ لا يحمل لأخيه المؤمن إلّا الأمنَ والسَّلامة، فهما كنفسٍ واحدة.

وقيل: عبَّر بـ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾؛ ترغيبًا في السَّلام، والإحسانِ في الإكرام، ولتصلحَ العبارةُ لِما إذا لم يكنْ فيها أحدٌ، فيقالُ حينَئذٍ: (السَّلامُ علينا وعلى عبادِ اللّه الصّالحينَ)، فيكون من الاستعمال في الحقيقة والمجاز[7]، وذلك على أحدِ القولين.

دلالةُ اختلافِ وصف المسَلَّم عليهم:

موازنةُ السّياقِ بين الإباحةِ والمنعِ، وبين بيوتِ الأقارب والأباعد

اختلفَ التَّعبيرُ عن المسَلَّم عليهم في الآيتين في السّورة ذاتها، رغم أنَّ المراد بأنفسكم هو أهلُ البيت المدخول؛ لمناسبة سياقِ كلٍّ موضوع؛ إذ ناسبَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ سياقَ الحديث عن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 411.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.
(3) ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين: 4/ 384.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 303.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 575.
(6) حاشية ابن المنير على تفسير الزمخشري: 3/ 258.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.

دخول بيوتِ الأهل والأقارب والأصدقاء، وإباحةِ الأكلِ منها دونَ استئذان ودون أيِّ حرجٍ، وهم ألصقُ النّاس بالإنسان، ومن تكون العادةُ بينهم التَّباسط، بينما ناسبَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿أَهۡلِهَآ﴾ [النّور: 27] في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النّور: 27]، سياقَ الحديثِ عن بيوتِ الغرباء، والمنعِ من دخولها، واشتراطِ الاستئناسِ مع الاستئذانِ؛ لوجودِ الوحشةِ فيما بينهم، ولأنَّ السّياق سياق استئذانٍ مجرَّد.

دلالةُ ﴿مِّنۡ﴾ في السّياق المحكم:

يجوز أنْ يتعلَّقَ حرفُ ﴿مِّنۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بمحذوف صفة لـ ﴿تَحِيَّةً﴾، وأنْ يتعلَّقَ بنفسِ ﴿تَحِيَّةً﴾، أي: تحيَّةً صادرةً من جهةِ الله، و﴿مِّنۡ﴾ لابتداء الغايةِ مجازًا[1]، كونَ التَّحيَّةِ من عند الله مباركةً، ويكسبها قداسةً ووقارًا.

نكتةُ استعمالِ مفردة (السَّلام):

دعاءٌ بالسَّلامة مع اللُّطفِ، وتأمينٌ بالسَّلام مع الأنسِ

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ لفظَ التَّسليم دون غيرِه، في قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، ولم يقل: (فحيّوا، أو فألقوا التَّحيَّة)؛ لأنَّ لفظَ السَّلام يجمعُ معنيين، هما تأنيسُ الدّاخلِ بتأمينه إنْ كان لا يعرفه، وباللُّطفِ له إنْ كان معروفًا؛ لأنَّ لفظَ السَّلام مشتقٌّ من السَّلامة، فهو دعاءٌ بالسَّلامة، وتأمينٌ بالسَّلام؛ لأنَّه إذا دعا له بالسَّلامة؛ فهو مسالمٌ له، فكان الخبرُ كنايةً عن التَّأمين، وإذا تحقَّقَ الأمرانِ؛ حصلَ خيرٌ كثيرٌ، وفي كلمة (عَلَيۡكُمۡ) معنى التمكُّن، أي: السَّلامةُ مستقرَّةٌ عليكم؛ ولذا كانت تحيَّةُ السَّلام من جوامع الكلِم[2].

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 444.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 304.

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿تَحِيَّةً﴾:

الجمعُ بين المعاني وتكثير الدَّلالات تنوُّعٌ وإبانة

انْتَصَبَ لفظُ ﴿تَحِيَّةً﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةً﴾ على المَصْدَرِ بقوله: ﴿فَسَلِّمُواْ﴾؛ لأنَّ معناه فحيّوا[1]، من بابِ قَعَدْتُ جُلوسًا، وأَصْلُ ﴿تَحِيَّةً﴾ مَصْدَرُ حَيّاهُ تَحيَّةً[2]، كَأَنَّهُ قالَ: فحيّوا تَحيَّةً مِن عِنْدِ اللهِ[3]، وفي المصدريَّة تأكيدٌ لاستحبابِ إلقاءِ السَّلام من قبل الدّاخل إلى البيوت؛ لِما فيه من تأمينٍ ولُطْفٍ وتأنيسٍ، وفي استعمال لفظ ﴿تَحِيَّةً﴾ مع ﴿فَسَلِّمُواْ﴾ جمع بين التسليم والتحيَّة دون الاقتصار على أحدهما، فلم يقل: (فسلِّموا على أنفسكم سلامًا)، أو (فحيوا أنفسكم تحية)، ففيه جمعٌ بين المعاني، وتكثيرٌ للدَّلالات.

غرضُ تنكير لفظ ﴿تَحِيَّةً﴾:

تحيَّةُ الإسلام السَّلام، وهي رمزٌ للأمان، وملمحٌ للسَّلام

نُكِّر لفظُ تحيَّةٍ في قولِه تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةً مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ لتفخيم تحيَّةِ الإسلام وتعظيمِها، وهي السَّلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته، فهي تحيَّةٌ فخيمةٌ لا يُقادَرُ قَدرُها.

دلالةُ تعليقِ التَّحيَّةِ بكونها من عند الله:

تُضافُ التَّحيَّةُ إلى مَنْ له الكمالُ كلُّهُ، وهي ثابتةٌ بحكمِهِ وأمره

جاء تعليقُ ﴿تَحِيَّةً﴾ بأنَّها ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ للإشارة إلى شرفها ومكانتها؛ فهي تحيَّةٌ جديرةٌ لتمام حُسْنها أنْ تُضافَ إلى مَنْ له الكمالُ كلُّه[4]؛ ولأنَّه هو الذي شَرَعها، وأمَرَ بها سبحانه[5]، فهي ثابتةٌ بأمره مشروعةٌ منه[6]؛ ولأنَّ التَّحيَّةَ في حقيقتها طلبُ سلامةٍ وحياةٍ للمسَلَّم عليه والمحيّا من عند الله[7]، ولأنَّه غايتُها، أي: الذي تَنتهي إليه هذه التَّحيَّةُ؛ ليُثيبَ عليها، ويُجيبَها؛ لأنَّك تقول: السَّلامُ علينا،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 73.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 304.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 423.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 423.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 258.

أو السَّلامُ عليكم، فهي تُطلَبُ منه، فهو غايتُها[1]، ولأنَّ السَّلامَ اسمٌ مِن أسماءِ اللّه تَعالى؛ ولأنَّ الرَّدَّ عليه - إذا سَلَّم - دُعاءٌ له عند اللّه؛ ولأنَّ الملائكةَ تَرُدُّ عليه، فيَكونُ ثَوابًا مِن عند اللّه[2].

سرُّ وصف التَّحيَّة بالبركة:

تحيَّةُ المُؤمِنِ مضاعفةٌ في أجرِها، مستمرَّةٌ في عوارف بركتها

وُصِفَتِ التَّحيَّة بالبَرَكةِ في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً﴾؛ لأنَّها دَعوةُ مُؤمِنٍ لِمُؤمِنٍ بالسَّلامة، فيبقى أثرُها ومنفعتُها[3]، وكلاهما يرجو بها مِن اللّهِ زيادة الخَيرِ[4]؛ إذ من معاني البركة في اللغة الثباتُ والنَّماءُ والزيادة، فهي كثرةُ الخيرِ وتزايدُه؛ ولكونها خُصَّتْ بثبوتِ الخير الإلهيِّ والفيض الرَّبانيِّ[5]، وللإشارة إلى ثباتِ خيرها، والمعنى: تحيَّةً "ثابِتَةً أعظَمَ ثَباتٍ بِكَونِها موافِقَةً لِما شَرَعَ اللّه مِن خالِصِ قُلوبِكم"[6]، ولِما فيها مِن نيَّةِ المُسالَمةِ، وحُسنِ اللِّقاءِ والمُخالطةِ، وذلك يوفِّرُ خَيرَ الأُخوَّةِ الإسلاميَّةِ[7]، ولأنَّها "مستتبعةٌ لزيادةِ البركات والخيرات ولزيادةِ المحبَّة والمودَّة"[8]، ومن بركتِها أنَّ المسلمَ يُثابُ عليها[9].

دلالةُ وصفِ التَّحيَّة بالطّيبِ:

التَّحيَّةُ دعوةٌ بالسَّلامَةِ، تطيبُ بها النَّفس، ويتلذَّذُ بها السَّمع

وُصِفَتِ التَّحيَّة في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ بالطّيبِ، وهو طيبٌ مَجازيٌّ بمعنى النَّزاهةِ والقَبولِ في نفوسِ النّاسِ؛ ولأنَّها دعاءُ المؤمنِ للمؤمنِ بالسَّلامَةِ، وإيذانٌ بالمُسالَمَةِ

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة النور، ص: 417.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 126.
(3) الجصاص، أحكام القرآن: 3/ 435.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 258، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 157.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برك)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 183.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.
(8) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 157.
(9) تفسير الجلالين، ص: 469.

والمُصافاةِ[1]، ودعاءٌ كذلك بطيبِ الرِّزق[2]، وبها يتلذَّذُ السَّمعُ، وتطيبُ نفسُ من يستمعُ إليها[3]، ولِما فيها من طيبِ العَيْشِ بالتَّواصُل، وطيبِ الذِّكرِ والشَّأْنِ[4].

نكتةُ تنكيرِ لفظَي ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ و﴿طَيِّبَةً﴾:

تحيَّةُ الإسلامِ عهدٌ بالأمان، يُفشى لكلِّ إنسان

نُكِّرَ لفظا ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ و﴿طَيِّبَةً﴾، في قولِه تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾؛ لإفادةِ معنى التَّعظيم والتَّفخيم، والتَّكثير للخير الَّذي تحتويه تحيَّةُ الإسلام، وللطِّيبِ والأمان والمسالمة والمصافاة الَّتي تقومُ عليه.

لطيفةٌ في تعداد الصِّفات:

في كثرةِ صفاتِ تحيَّة الإسلام وتنوُّعِها، تأكيدٌ على فضيلتها

أفادَ تعدُّدُ الصِّفات للتَّحيَّة في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، تأكيدَ فضيلةِ السَّلام؛ لِما فيه من جَلبِ المودَّةِ والمحبَّةِ والخير، فقد وصفها بثلاثةِ أوصافٍ: أنَّها تحيَّةٌ كائنةٌ ثابتةٌ من عند اللّه، وأنَّها مُباركةٌ، وأنَّها طيِّبةٌ[5]، ومن أهْدى سَلامًا إلَى إنْسان، فهيَ هَديَّةٌ خَفيفةُ المحمل، طيبَّةُ الرّيح، مباركةُ العاقِبَة[6].

براعةُ ترتيبِ صفات التَّحيَّة:

مراعاةُ السَّببيَّةِ المقتضية للتَّرقي مِنَ الأعلى إلى الأدنى

جاء ترتيبُ التحيَّةِ بكونها من عند اللّه، ثمَّ أتْبعها بكونِها مباركةً، ثمَّ أتْبعها بكونها طيّبةً؛ مراعاةً للترقّي من الأعلى إلى الأدنى، ومراعاةً للسببيَّة؛ فإنَّ كون التَّحيَّةِ من عند اللّه سببًا لبركتها وطيبها، فالبركةُ خُصَّتْ بثبوتِ الخير الإلهيِّ والفيض الربانيِّ[7]، والطَّيِّب أنْ تكونَ موافقةً لشريعةِ اللّه؛ لأنَّ الأعمالَ الصالحة والطَّيِّبة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 258.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 319، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 319، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 127.
(5) ابن عثيمين، تفسير سورة النور، ص: 420.
(6) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 553.
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 183.

هي الموافقةُ للشرع؛ بأنْ تكونَ مخلصًا فيها لله مُتَّبِعًا فيها رسول الله ﷺ؛ ولكون بركتِها بالإثابة عليها سببًا في طيبها[1].

سرُّ المبالغةِ في التَّعبير بصيغة ﴿طَيِّبَةً﴾:

وَزنُ ﴿طَيِّبَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ (فَيْعِلَةً)، وفي استعمال هذا الوزن مُبالَغَةٌ في الوصف[2]، فالطَّيِّبُ هو: المَوْصوفُ بالطِّيب الشَّديد، وأصلُ مَعنَى الطَّيِّب المُلاءَمَةُ فيما يُرادُ مِنَ الشَّيْءِ[3]، والغرضُ من هذه المبالغة هو بيانُ أنَّ كلمةَ (السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته) خَيْرٌ مِنْ تَحيَّةِ أَهْلِ الجاهليَّة[4]، فالسَّلامُ اسمٌ من أسماء الله تعالى، وعن ابن عباس ﷺ قال: السَّلامُ عليكم معناهُ اسْمُ الله عليكم[5].

بيانُ أنَّ تَحيَّة الإسلام، خيرٌ من تَحيَّةِ أهلِ الجاهليَّة

دلالةُ فصل الجملة عمّا قبلَها:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينهما من كمالِ اتِّصالٍ؛ إذ إنَّه لَمّا ذكر سبحانه ما يتعلَّق برفعِ الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض، وحكمِ الأكل من بيوتِ الأهل والأقارب والأصدقاء، وحكم السَّلام عند دخول هذه البيوت؛ وصَفَ هذا البيانَ بأنَّه عظيمُ الشَّأنِ؛ تنبيهًا على ما في هذه الآيات من الحُسن والإحسان، أي: مِثْلَ هذا البَيانِ العظيمِ الشَّأْنِ يُبَيِّنُ اللهُ المُحيطُ بكلِّ شيءٍ لَكُمُ الآياتِ الَّتي لا أكْمَلَ منها[6].

بيانٌ إجماليٌّ، لما في الآيات من كمالِ حُسنٍ وإحسانٍ

دلالة (الكاف) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

(الكاف) من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كافُ تَشْبيهٍ، و(ذَلِكَ) إشارَةٌ إلى هذهِ الأحكام، أَيْ: كما بَيَّنَ لَكُم أحكامَ دينِكُم في هذهِ الأَشْياءِ، يُبَيِّنُ لَكُم سائِرَ ما بِكُم من حاجَةٍ إليه في دينكم[7].

ذكرُ استيعاب الشَّريعةِ في الحياة، لكلِّ الأحكام المقتضاة

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة النور، ص: 417.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 137.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 423.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 319.

مرجعُ اسمِ الإشارة (ذَلِكَ):

يرجعُ اسم الإشارة (ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ إلى البيانِ الذي بيَّنه سبحانه في الآية، من أحكامِ نفيِ الحرجِ، وإباحةِ الأكل من بيوتِ الأهل والأقارب والأصدقاء، ونفيِ الحرج في أكلهم مجتمعين أو متفرِّقين، واستحبابِ السَّلام عند دخول البيوت، والمعنى: مثل ذلك البيانِ الذي طرقَ أسماعكم يبيِّنُ اللهُ لكم الآيات، فبيانُه بالغٌ غايةَ الكمالِ حتى لو أُريدَ تشبيهُهُ؛ لَما شُبِّه إلّا بنفسه.

بيانُ اللهِ للأحكام الَّتي بيَّنها سبحانه، بالغٌ الغاية في الكمالِ

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيد:

استُعمِلَ اسمُ الإشارة (ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ للبعيد؛ للإيذانِ بعلوِّ رتبةِ هذه الأحكام التي تضمَّنتها الآيةُ من نفي الحرجِ، والإباحةِ في الأكل، واستحبابِ السَّلام، وأنَّها أحكامٌ فخيمةٌ عظيمةُ الشَّأن[1]، وللتنبيه على أهميَّة هذه الأحكام، وأنَّها أحكام عظيمة ينبني عليها شأنٌ عظيم من شؤون الحياة الاجتماعيَّة؛ فلا ينبغي التَّهاون فيها، أو التراخي في تطبيق أحكامها وفهم حِكَمِها.

الإيماءُ إلى ضرورة تطبيق تلك الأحكام، وفهم حكمها

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يُبَيِّنُ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يُبَيِّنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ على التجدُّد والاستمرار، أي: إنَّ بيانَ اللهِ لآياته وأحكامه، والانتفاعَ بهذا البيان مستمرٌّ متجدِّدٌ؛ كلَّما قُرِئَتْ هذه الآيات، ومصلحٌ لكلِّ زمانٍ ومكان، ومواكبٌ لجميعِ البيئاتِ وسائر الأحوالِ، ومناسبٌ لجميعِ الأجيال، فإنَّ نَفْعَ هذه التَّشريعات الأُسريَّة وما يتحقَّق فيها - من تخفيفٍ ونفي الحرج، وإباحةٍ للأكلِ من هذه البيوت، وإفشاءِ السلام والمودَّة والمحبَّة - عامٌّ لجميع المخاطَبين،

تجدُّدُ البيانِ على مدار الزَّمان، دليلُ الإعجاز التَّشريعيِّ والغيبيِّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.

فبيانه مستمرٌّ على مدى الزمان، وفي هذا كلِّه إشارةٌ إلى إعجازِ القرآن الكريم التشريعيِّ والغيبي في آنٍ.

دلالةُ تعريفِ المسندِ إليه بلفظ الجلالة:

عَرَّفَ القرآنُ المسندَ إليه في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾، بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ الدالِّ على الذاتِ الجامعةِ لصفاتِ الإلهيَّة كلِّها؛ إظهارًا لِما له سبحانه من صفاتِ الكمال والعظمة والجلال، فهو المحيطُ بكلِّ شيء، بما يشيرُ إلى كمالِ ما شرعه سبحانه وعلوِّهِ من أحكام من نفي الحرج، وإباحةِ الأكل من بيوتِ الأهل والأقارب وغير ذلك من الأحكام التي ذكرتها الآية، والتي تؤدّي إلى التَّخفيفِ واليُسر ومتانة العلاقات الاجتماعية من المودَّة والرحمة والمحبَّة.

مَـن لـه صفاتُ الكمالِ، يشرعُ لعبادهِ أحكامًا فـيـهـا كـمـال خيرهم

دلالةُ تقديمِ ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾، في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ اهتمامًا بالمقدَّم، وهم المخاطَبون، وإيثارًا لهم بالخطاب، أي: لكم دون غيركم، وذلك للمُبالَغةِ في حَملِهم على العملِ بمضمونِ هذه الأحكام الواردة في الآية، وما تتضمَّنه من تخفيفٍ ويُسرٍ ورفعٍ للحرج عنهم، مع ما في التقديم من الامتنان، فإنَّ البيانَ فيه مصلحةٌ ونفعٌ للمبيَّن لهم.

الاهـتـمـامُ بالمخاطَبين حملٌ لهم على التزام الخطابِ المبين

نكتةُ جمع لفظِ ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾:

جمعُ ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ لإفادةِ العموم؛ لأنَّ الجمعَ المعرَّف بـ(أل) من صيغ العموم، وللدَّلالةِ على تعدُّدِ هذه الآيات وكثرتها وتفخيمها، فما نُسِبَ إلى الله من الآيات، عظيمُ القدرِ، جليلُ الأثرِ.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾:

(أل) التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

﴿ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ جنسيَّةٌ، تفيد العموم؛ فيشمل المشبَّه كلَّ آياتِ الله سبحانه، أي: إنَّ اللهَ يبيِّنُ لكم كلَّ الآيات مثل ما مرَّ من بيانِ الأحكام الواردة في الآية، فقد "جعل ذلك الشَّرع يُطابق العقلَ السَّوي، والنورَ الضَّويَّ، والمنهلَ الرَّوي، والسببَ القوي"[1]، أي: "يُفَصِّل لَكُم مَعالم دينكُم"[2]، وتكون اللّام أيضًا للكمالِ، أي: يبيِّنُ لكم الآياتِ الكاملةَ التي لا أكملَ منها[3].

الآيـاتُ اسـمٌ صـادقٌ عـلى الـكـامـلات في المعاني والبيان

دلالةُ تَكرارِ الفاصلة في السّياقِ:

جاءتِ الفاصلة: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ في الآية قبل السّابقة، بإضافة الآياتِ إلى الضَّمير لا إلى لفظ الجلالة، والتي قبلها باللفظ ذاته، وذلك للإيذان بأنَّ كلَّ ما وقعَ قبل هذه الجملة بيانٌ لآياتِ القرآن اتَّضحتْ به الأحكامُ التي تضمَّنتها، وهو بيانٌ يُرجى معه أنْ يحصلَ للمخاطَبين الفهمُ والعلمُ بما فيه كمالُ شأنِهم[4]، وللدَّلالة على مزيدِ تأكيدٍ للأحكام المختتَمةِ به، وتفخيم فخيمٍ لها[5]، وفي تكرارها إشعارٌ بأهميتها، وإشعارٌ كذلك بطروِّ الغفلةِ عند بعض الناس عن تطبيقها.

بـيـانٌ مـؤكّـدٌ لـيـحـصُـلَ لـلـمـخاطَبين، مـا فـيـه كـمـالُ شأنِهم

دلالةُ لفظِ (لعلَّ) في السّياق:

حرف (لعَلّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ معناه الرجاء، و(لعَلّ) تَرَجٍّ فيها معنى التَّعليل، وتومئُ إلى أنَّ تعقُّلهم وتفهُّمهم لمعاني الآيات مع ذلك أمرٌ يتطرَّقه احتمالُ التخلُّف، أي: لتكونوا على رجاء عند مَنْ يصحُّ منه الرجاء من ثباتِ هذا الوصفِ لكم، وهو ضبطُ النُّفوس وردُّها عن الأهواء، باتِّباع آياتِ الشَّرع التي أنزلها

تعليلٌ ورجاءٌ بـحـصـولِ الفهمِ والعلمِ للمخاطَبينَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 320.
(2) تفسير الجلالين، ص: 469.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.

لكم، والذي كرَّرَ وصفه بأنَّه عليمٌ حكيم، فلا تتولّوا عن الإذعانِ للأحكام وأنتم معرضون[1].

علَّةُ فصلِ الجملةِ عمّا قبلَها:

الاستئنافُ يبيِّنُ علَّةَ بيانِ اللهِ المكرَّرِ المؤكِّدِ للآيات

فُصِل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عمّا قبلَهُ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ ولم يأتِ بالعاطف؛ إمّا لِما بينهما من كمالِ اتِّصالٍ؛ إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ جاء تعليلًا لبيان اللهِ للآيات، وهو أنْ يُرْجَى من البيان أنْ يَحْصُلَ للمخاطَبين الفَهْمُ والعِلم، وإمّا لِما بينهما من شبه كمال اتِّصال، أي: جاءتِ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا سألَ ما علَّة بيان الله للآيات؟ فجاء الجوابُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

بلاغةُ الفاصلةِ في السّياق المحكم:

الأحكامُ في الآيةِ تقتضي التعقُّلَ، إلى ما فيه كمال الشَّأنِ الأمثل

ختمَ سبحانه الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لمناسبتها لِما سبق؛ لأنَّ ما تضمَّنته الآيات من أحكامٍ وشرائع واضحة بيِّنة، هو بيانٌ يقتضي منكم، ويحملكم على التعقُّل رجاءَ أنْ يحصلَ لكم الفهم والعلم بما فيه كمال شأنكم[3]، ولِما في هذا التَّذييل بعد التَّذييلين السّابقين من العلم والحكمة من الجزالة ما لا يخفى.

فائدةُ حذفِ مفعول ﴿تَعْقِلُونَ﴾:

بيانُ اللهِ للآيات سببٌ لتعقُّلِ، ما في تضاعيفها من الشَّرائعِ

حَذفَ النَّظمُ الحكيم مفعول ﴿تَعْقِلُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ للإيذان بالعموم؛ إذ لو ذُكر المفعول لأوهمَ الاقتصارَ على مفعول واحد، والغرضُ أنْ يذهبَ الذهنُ كلَّ مذهبٍ يمكن أنْ يصلَ إليه، فيشمل: أنَّ هذا البيانَ للآيات سببٌ يُرجى معه تعقُّلُ المخاطَبين لكلِّ ما في تضاعيفها من الشَّرائعِ والأحكام، أي: كلُّ بيانٍ بيَّنه في الآيات التي سبقتْ قوله:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 321.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/ 296.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾، والعمل بموجبها للفوز بسعادة الدّارين[1]، ولقصدِ الإيجازِ مراعاةً للفاصلة كذلك؛ إذ ذِكْرُ الآياتِ قبلها يدلُّ على المحذوف، أي: لعلكم تعقلون كلَّ هذه الآيات التي يبيِّنها اللّهُ في كتابه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العمى والعَمَه:

العَمَهُ خاصٌّ في فقدِ البصيرة، والعمى عامٌّ في فقدِ البصرِ والبصيرة

العمى من (عَميَ)، ويدلُّ في أصلهِ على سَتْرٍ وتَغْطيَةٍ، ومنه العَمَى: وهو ذَهابُ البَصَرِ من العَيْنَيْنِ كِلْتَيهما، ولا يَقَعُ على عَيْنٍ واحدةٍ[2]، والعَمَى أَيْضًا: ذهابُ بَصَرِ القَلْبِ، تقولُ: رجُلٌ عَمي القَلْبِ، أَي: جاهِلٌ[3]، أي: يُقال في افتقادِ البصرِ والبَصيرة، وقَوْلُهُم: ما أَعْماهُ! إِنَّما يُرادُ ما أَعْمَى قَلْبَهُ! ولا يُقالُ في عَمَى العُيونِ: ما أَعْماهُ! لِأَنَّ ما لا يَتَزَيَّدُ لا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ[4]، أي: يُذمُّ بعمى البصيرة دون عمى البصرِ، قال بعضهم: لم يعدَّ اللّهُ تعالى افتقادَ البصرِ في جنبِ افتقادِ البصيرة عمًى، حين قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46][5].

والعَمَهُ من (عَمِهَ)، ويدلُّ في أصله على حَيْرَةٍ وقِلَّةِ اهْتِداءٍ[6]، ويُقالُ: رَجُلٌ عَمِهٌ، أي: يَتَرَدَّدُ مُتَحَيِّرًا لا يَهْتَدي لِطَريقِهِ ومَذْهَبِهِ[7]، والعَمَهُ: التَّرَدُّدُ في الضَّلالَةِ والتَّحَيُّرِ، فالعَمَهُ في الرَّأْي، والعَمَى في البصَر[8]، فالفرقُ بين العمى والعَمَه: أنَّ العَمَهَ في عمى البصيرة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).
(3) الزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عمي).
(4) الرازي الحنفي، مختار الصحاح: (عمى).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 3/ 126 - 127.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمه).
(7) تاج العروس: (عمه).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (عمه).

خاصَّةً، والعَمَى عامٌّ في البصر والبصيرة، أي: العمى قد يكون ماديًّا، وقد يكون معنويًّا، بينما العَمَهُ يكون معنويًّا فقط.

التَّشَتُّت والتَّفرُّق:

التَّشتُّتُ أبلغُ من التَّفرُّق؛ إذ هو تشتيتُ الشَّيء المتفرِّق

يتقاربُ لفظا (التَّشتُّت) و(التَّفرُّق) إلى درجةِ الترادفِ؛ إذ يُعرَّف كلٌّ منهما بالآخر، فكلاهما ضدُّ التَّجمُّع، ولكن عند إمعانِ النظر في معانيهما اللُّغوية وفي الاستعمال القرآني نلحظ بعض الفروق، فأصلُ (شَتَّ) يَدُلُّ على تَفَرُّقٍ وتَزَيُّلٍ، مِنْ ذَلِكَ تَشْتِيتُ الشَّيْءِ المُتَفَرِّقِ، تَقولُ: شَتَّ شَعْبُهُم شَتاتًا وشَتًّا، أَيْ: تَفَرَّقَ جَمعُهُم[1]، وجاؤوا أَشْتاتًا، أَيْ: مُتَفَرِّقينَ، وتَشَتَّتَ؛ إذا انْتَشَر، وشَتّانَ ما بَيْنَهُما، أَي: بَعُدَ ما بَيْنَهُما، ويُقالُ: أَخافُ عليكُم الشَّتاتَ، أَي: الفُرْقَةَ[2].

وأصلُ (فَرَقَ) يدلُّ على تمييز وتزييل بين شيئين[3]، والتَّفرُّقُ: انفصالُ الشَّيء عن الشَّيء وتميُّزه منه، والتفريقُ ضدُّ التَّجمُّع[4]، والفَرْقُ: فصلُ بعض الشَّيء أو أشياء بعضها من بعضها الآخر فصلًا واصلًا إلى العمق، والتَّفريقُ: جعْلُ الشيءِ مفارقًا لغيره، كأنَّه جعلَ بينهما فرقًا حتى تباينا تباينًا ماديًّا كان أو معنويًّا[5]، إذًا: يتميَّز لفظ التشتُّت بمعنى التزييل والتَّباعد والانتشار وتشتيتِ الشَّيء المتفرِّق، فالتَّشتُّت أبلغُ في التفرُّق، أي: يكون كُلٌّ وحدَهُ، أي: منفردًا، بينما يدلُّ لفظ التفرُّق على انفصالِ الشيء وتميُّزه عن غيره حتى يتباينا، وذلك من خلال إحداث فرق، أي: فصلًا واصلًا إلى العمق.

الحَرج والجُناح:

الحـرجُ ضيقٌ شديد، لا منفذَ فيه، والجُناحُ ميلٌ إلى الإثمِ والجنايـة والجرم

أصلُ (حرج) يدلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيْءِ وضيقه، والحَرَجُ: الإِثْمُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شتّ).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شتت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(4) الزبيدي، تاج العروس، ومحمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (فرق).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فرق).

والحَرَجُ: الضّيقُ[1]، وقيلَ: الحَرَجُ أَضْيَقُ الضّيقِ[2]، فالحرجُ ضيقٌ لا منفذَ فيه مأخوذٌ من الحرجةِ، وهي الشَّجر الملتفُّ حتى لا يمكن الدخول فيه ولا الخروج منه[3]، وأصلُ (جنح) يدلُّ على المَيْلِ والعُدْوانِ، يُقال: جَنَح إلى كذا، أي: مالَ إليه، والجُناحُ: الإثْمُ، سُمّيَ بذَلِكَ لِمَيْلِهِ عَنْ طَريقِ الحَقِّ[4]، والجُناح: الجِنايَةُ والجُرْمُ، وقيل: هو التَّضييق، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 233]، أَي: لا إثم عَلَيْكُم ولا تَضْييقَ[5].

إذًا يتميَّز لفظُ الحرج بمعنى الضيقِ الشديد الذي لا منفذَ فيه، بينما يتميَّز لفظُ الجُناح بمعنى الميل إلى الإثم والجناية والجرم، كما أنَّ نفْيَ الحرج يكون فيما اتَّسعت دائرتُهُ، ونفيُ الجُناح فيما ورد بين أمرين[6].

العقل والعلم والفقه:

تتقاربُ هذه الألفاظُ في دلالاتها، فجميعها تدلُّ على المعرفة، وأنَّها نقيضُ الجهل، ويظهر ذلك من خلال الرجوع إلى معانيها اللُّغوية:

العَقْلُ: نَقيضُ الجَهْلِ، يقال: رجلٌ عَقولٌ؛ إذا كان حَسَنَ الفَهْمِ وافِرَ العَقْلِ[7]، والعَقْلُ: الحِجْر والنُّهى وضِدُّ الحُمق، والعَقْلُ: القَلْبُ، وسُمّي العَقْلُ عَقْلًا؛ لأَنَّهُ يَعْقِل صاحبَهُ عَنِ التَّوَرُّط في المَهالك، أَي: يَحْبِسه[8]، والعَقْل: القوَّة المتهيِّئة لقبول العلم، ويُقال للَّذي يَسْتَنبِطُه الإنسانُ بتلكَ القوَّةِ: عَقْلٌ[9]، أَو هوَ العِلمُ بصفاتِ الأشياءِ من حُسنِها وقُبحِها، وكمالِها ونُقصانِها[10].

العقلُ هو قـوَّةُ قَـبـولِ العـلـم، والعـلـمُ اعتقادٌ مطابقٌ للواقع، والـفِـقـهُ أخـصُّ من العلم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرج).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حرج).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 181.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنح).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جنح).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 411.
(7) العين، الخليل، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقل).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (عقل).
(9) الراغب، المفردات، ص: 577.
(10) الزبيدي، تاج العروس: (عقل).

والعِلْمُ: نقيضُ الجهلِ، والعِلْمُ: اليقين، يُقال: عَلِمَ يعلم؛ إذا تيقَّن، وجاء بمعنى المعرفة أيضًا[1]، عَلِمَهُ: عَرفَهُ حقَّ المعرفة، والعِلْمُ: الاعتقادُ الجازم الثابت المطابق للواقع[2]، والعِلْمُ: إدراكُ الشَّيء بحقيقتهِ، وذلك ضربان: أحدهما: إدراكُ ذاتِ الشَّيء، والثاني: الحكمُ على الشَّيء بوجودِ شيءٍ هو موجود له، أو نفي شيء هو منفيٌّ عنه[3].

وأصلُ (فقه) يدلُّ على إدراكِ الشيء والعلم به، ثمَّ اختصَّ بذلك علمُ الشريعةِ، فقيلَ لكلِّ عالمٍ بالحلالِ والحرامِ: فقيهٌ[4]، والفقهُ: العلمُ بالشيءِ والفهمُ له والفطنةُ، ورجلٌ فقيهٌ: عالم، وكلُّ عالمٍ بشيءٍ؛ فهو فقيهٌ[5]، وفسَّرهُ الراغبُ: بالتَّوصُّلِ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلم[6]، فالفقهُ بالشَّيء: معرفةُ الوصولِ إلى أعماقهِ وفهمه فهمًا عميقًا مستوعبًا، كأنَّما غاصَ في داخله، فأدركَ دقائقَهُ وخفاياه[7].

إذًا يتميَّزُ العقلُ بأنَّه الذي يزجرُ صاحبه، ويمنَعُهُ عن الوقوع في القَبيح، والعقلُ: الحفظُ؛ ويتميَّز العلم: بأنَّه إدراكُ الشَّيء بحقيقتهِ، فهو اعتقادٌ جازم مطابق للواقع[8]، ويتميَّز الفقهُ بأنَّه أخصُّ من العلم، إذ فيه معنى الفطنة إضافة إلى العلم، وقد استعمل القرآنُ الفقه في مواضعَ كثيرةٍ بمعنى دقَّة الفهم والتعمُّق في العلمِ؛ ليترتَّب عليه أثرهُ، وهو الانتفاعُ به.

(1) الفيومي، المصباح المنير: (علم).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (علم).
(3) الراغب، المفردات، ص: 580.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فقه).
(5) الزبيدي، تاج العروس، وابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(6) الراغب، المفردات، ص: 642.
(7) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فقه).
(8) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 125.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»